

فترة حاسمة من تاريخ المغرب موقف ليبيا فيما بين قيام الفاطميين في افريقية ونقلتهم الى مصر

للدكتور سعد زغلول عبد الحميد

مقدمة

يعتبر ظهور الدولة الفاطمية حدثا عظيما في تاريخ الاسلام بوجه عام وفي تاريخ المغرب أو افريقيا الشمالية جميعا بوجه خاص . وذلك أن ما فشل العلويون فيه - وهو المطالبة بحقهم في وراثة تركة النبي وهي الخلافة في المشرق - قد نجح الفاطميون في تحقيقه في المغرب نجاحا كانت له آثاره الحاسمة في تقرير مصير هذه البلاد لأمد بعيد . فبلاد المغرب ظلت منذ تمام فتحها ودخولها في الاسلام جزءا لا يتجزأ من الامبراطورية العربية ، يخضع لوالى مصر في كثير من الأحيان ، ويتبع الخلافة في دمشق - رغم بعد الشقة - في بعض الأحيان . ولكن كن من نتائج سوء الادارة الأموية واستبداد عمالها أن قامت البلاد بسلسلة من حركات العصيان - التي يمكن ان تكون استمرارا لثورات عهد الفتح الأول - لقيت الدولة كثيرا من المشقة في اخادها . ولم تكن لهذه الحركات الثورية صبغة سياسية ليس غير بل انها اتخذت طابعا دينيا باعتناق البربر من أهل البلاد لمذهب الخوارج المعارض للدولة ، والذي يطالب بالمساواة التامة بين جميع المسلمين دون اية تفرقة عنصرية . هذا الى جانب الحركات الدينية الانفصالية ، التي يسميها الكتاب زندقة أو ارتدادا عن الاسلام ، والتي قامت في الأقاليم المنعزلة مثل جبال غمارة (الريف) أو جبال برغواطة (أطلس) ، والتي نشأت في أول أمرها نشأة خارجية .

هاتان الصفتان هما اللتان تميزان أحوال المغرب خلال العصر الأموي وهما :

المقاومة العنيدة المعبرة عن السخط على سوء الإدارة وفسادها ، وانتشار المذهب الخارجي الذي كان يؤيدها ويؤكد شرعيتها . ترتب على ذلك أن أصبح احتفاظ الدولة العربية بولاياتها المغربية البعيدة من الأمور الصعبة ؛ وفي الفترة التي كانت الأسرة الأموية تلقى خلالها مصرعها على أيدي العباسيين ، سادت الفوضى السياسية في البلاد التي أصبحت على أنظار اللاجئين من المشرق والمغرب وأصحاب المطامع الأناية . ولكن ما أن تم النظر للعباسيين حتى عاد المغرب من جديد إلى « أنس الطاعة » : فخضع عبد الرحمن بن حبيب بافريقية للمنصور ، وحتى عبد الرحمن الأموي الذي استقل بأسبانيا اعترف هو الآخر بالخلافة الجديدة وخطب في أول أمره للعباسيين ؛ فالخلافة كانت - حتى ذلك الوقت - واحدة لا تتجزأ ، إذ لم يتكلم الفقهاء في امكانية تعددها الا فيما بعد ، وأمام الأمر الواقع . ولكن خضوع المغرب لخلفاء بغداد كان صحيحا من الناحية النظرية فقط ، فالحقيقة أن سلطان العباسيين لم يتعد افريقية أي تونس . أما المغرب الأوسط فلم يكن خاضعا لأمر القروان ، رغم قيام بعض هؤلاء - مثل عبد الرحمن بن حبيب - بحملات بعيدة ضد قبائل زناتة بأرض تلمسان ؛ ولم يكن من الغريب أن قامت امارة الرستيين الخوارج بتاهرت حوالي منتصف القرن الثاني الهجري (٨ م) وكذلك امارة المدرارين بسجلماسة بعيد هذا الوقت . وعلى ذلك فلا مجال للكلام عن خضوع المغرب الأقصى حيث قامت هرطقة برغواطة بأطلس وقام الأدارسة بفاس .

هذه الحالة التي هددت بانفصال المغرب عن مركز الدولة جعلت بغداد تفكر في ايجاد حل مناسب لمواجهة المشكلة ، فرأت أن تسند ولاية افريقية والمغرب بشكل وراثي لأسرة قوية تقيها متاعب تقلب الأحوال هناك . فعلا ظلت افريقية بين أيدي أفراد من أسرة المهلب بن أبي صفرة من عهد المنصور (سنة ١٥١ = ٧٦٨) الى عهد الرشيد (سنة ١٧٨ = ٧٩٤) . وفي سنة ١٨٤ = ٨٠٠ رأى الرشيد أن يستمر في السياسة التي رسمها جده ، فعهد بافريقية الى ابراهيم بن الأغلب ، واتفق معه على أن تستغنى الولاية عن المساعدة المالية السنوية التي كانت تدفعها مصر . وعلى أن تقدم - على العكس من ذلك - مبلغا سنويا الى خزانة بغداد . وهكذا

أصبحت افريقية وراثية في أسرة الأغلبية ، وصارت أشبه بمملكة مستقلة لا تربطها ببغداد الا روابط رقيقة من ولاء للخليفة ، ودفع مبلغ زهيد لبيت المال . وبذلك تحددت العلاقة بين المغرب وبين الخلافة ، وشهدت البلاد نوعا من الاستقرار بفضل هذا النظام الجديد ، ساعد على انتشار الاسلام واستمرار تعريب البلاد بشكل منتظم مطرد . فالأغلبية - رغم أنهم كانوا أمراء لكل بلاد المغرب من الناحية النظرية على الأقل - قبلوا الأمر الواقع وتركوا جيرانهم المناهضين للخلافة في هدوء . فلم يتهكوا قواهم في صراع ضد أمراء تاهرت أو أمراء فاس . ومع أن ذلك لم يكن في صالح الخلافة فقد كان فيه خير للاسلام : فاذا كانت القيروان عملت على انتشار السنة وخاصة المذهب المالكي فإن تاهرت نشرت الاسلام في المغرب الأوسط وحتى الصحراء على المذهب الاباضي ، وهو مذهب المعتدلين من الخوارج الذي لا يختلف كثيرا عن مذاهب أهل السنة حتى أطلق عليه حديثا اسم « المذهب الخامس »^١ ؛ وهذا يفسر كيف أن امارة سجلماسة الصفورية كانت تدبى بالولاء لخلافة بغداد . وكذلك كان الحال بالنسبة لفاس ، فرغم أن الأدارسة من العلويين الا أنهم لم يكونوا شيعة من حيث الاعتقادات ؛ ولو كانوا كذلك ، فهم معتدلون بشكل لا يفرقهم عن أهل السنة ، ولذلك يطلق الكتاب على دولتهم اسم الدولة الهاشمية^٢ مثلهم في ذلك مثل العباسيين . وعلى ذلك قامت فاس بدور مهم في نشر الاسلام السني في المغرب الأقصى ، وجهدت صادقة في القضاء على هرملقات البربر في جبال مراكش . وهكذا بفضل هذه المجهودات المنفردة في افريقية والمغرب الأقصى اشتركت الدول الثلاث - دون خطة مرسومة - في نشر الاسلام السني بالمغرب بالشكل الذي يوجد عليه حتى اليوم .

من كل ما تقدم يمكن أن تقدر مدى الانقلاب الذي حدث في المغرب من أقصاه الى أقصاه بعد نجاح الدعوة الشيعية في أرض كتامة ، وبعد ما حدث من خروج هؤلاء لغزو افريقية وقلب الأغلبية باسم الفاطميين ، ثم من القضاء على مملكة الخوارج بتاهرت وامارتهم بسجلماسة ، وما حدث من بعد من انتهاء حكم الأدارسة في فاس ؛ وقطع علاقة المغرب بالشرق وبالاخلافة ببغداد . فقد خاب أمل أهل

G. Demonlynes, Les Institutions Musulmanes, p. 38

(١) انظر

(٢) انظر ابن عذارى ، البيان المغرب ، طبعة بيروت ، ج ١ ص ١٠٠

البلاد بل والذين أقاموا صرح الدولة الجديدة بسواعدهم في حكم الائمة المعصومين ، واتضح لهم أن ما نودى به من انتهاء عهد الجور والفساد ، وحلول عهد العدل والاصلاح لم يكن الا سرايا . فالى جانب البدع الدينية الجديدة من اعلان عصبة الامام وتقديسه ، وتناول بعض الشعائر أو الطقوس الدينية المتعارف عليها بالحذف والتغيير ، وتجريح كبار الصحابة وأئمة الاسلام - مما لا يمكن أن يقبله شعب نشأ على السنة وتعصب لمذهب مالك منذ أجيال - انتهج الفاطميون سياسة مالية متعسفة ، على عكس ما بشر به الداعي في أول الأمر ، فاشتطوا في جمع الضرائب ، وتفننوا في تنويعها حتى فرضوا على الحجاج جميعا أن يملوا بالمهدية حتى يدفعوا ضريبة الحج . وعلى ذلك لم يكن من الغريب على شعب افريقية بل والمغرب جميعا أن يكره ذلك الحكم الذي جمع الى جانب مفساده الدينية ، مساوى ، سياسية وأعباء مالية بغیضة .

وعرف الفاطميون هذا التباعد الروحي بينهم وبين الشعب منذ البداية وأحسوا بعدم الاطمئنان في مستقرهم الجديد ، فاتخذوا الاجراءات المناسبة لمواجهة الموقف . والظاهر أن هدفهم لم يكن هو الاستقرار في افريقية بل انهم اعتبروها خطوة أولى أو مرحلة في الطريق الى المشرق أى الى مصر والحرمين وبغداد . ولتحقيق هذا الهدف الأبعد أخذوا يعدون العدة من تجميع الموارد البشرية والمالية ، فكان من الطبيعي أن يستمروا في سياستهم المالية الجائرة التي ضج منها أهل البلاد . وهكذا تركزت سياستهم المؤقتة في افريقية في نقطتين : أولاها العمل على فتح مصر ، وثانيتهما اغتصام الأسرة في مكان حصين يكفيهم شرور تقلبات الشعب المعادى لهم . وفعلًا قام أول جيش فاطمي بمحاولة فتح مصر سنة ٣٠١ = ٩١٢ بعد أربع سنوات فقط من دخول عبيد الله القيروان ، وقريب هذا الوقت (ما بين ٣٠٠ - ٣٠٣ = ٩١٣ - ٩١٥) تم اختيار موقع المهدية على بعد ستين ميلا من القيروان لتبنى فيه مدينة ملكية حصينة . وبعد أن تم بناء تحصيناتها عبر المهدي الذي نسبت

اليه عن اطمئنانه فقال : « أمنت على الفاطميات »^١ . وفعلًا قامت المهدية بدورها هذا خير قيام فحمت القائم ثم المنصور من خطر الثورة الخارجية التي ترعها أبو يزيد وشعب افريقية بعد أن كانا قاب قوسين من الهلاك أو أدنى . أما عن النقلة الى المشرق فانها تحققت على عهد الرابع من خلفائهم وهو المعز لدين الله بعد ٦٤ عاما من دخولهم القيروان ، اذ خرج المعز سنة ٣٦١ = ٩٧٢ من افريقية وفي نيته ألا يعود اليها ، فتقدمت موكبة تواييت آباءه وأجداده الذين لم يشأ أن يتركهم في أرض المهجر المؤقت .

رحل الفاطميون اذن من افريقية وتركوا أمرها لبني زيري الصنهاجيين بعد أن خلقوا في المغرب حالة من القلق الروحي الشديد هي التي وصفها جورج مارسيه بحق بأنها « الأزمة الفاطمية »^٢ . فالمذهب الشيعي لم يستطع (Georges Marçais) أن يفرس جذوره بعمق في أرض السنة الخالصة - التي اتخذت في جهات شكل مذهب الخوارج المتمتتين ؛ فكان من الطبيعي أن تعود الأمور الى مجراها المعتاد ؛ وهذا ما حدث في مصر أيضا بعد مائتي عام كان المذهب الاسماعيلي فيها هو المذهب الرسمي ، اذ عادت السنة الى عهدها الأول على يدى صلاح الدين . فبعد ثمانين عاما من خروج المعز الى مصر (أى سنة ٤٤٠ = ١٠٤٨) أعلن رسميا الغاء المذهب الشيعي من افريقية على عهد المعز بن باديس ، وقطعت الدعوة للفاطميين بل وأعلنت لعنتهم من أعلى المنابر ، وذلك بعد قيام حركات شعبية عنيفة ضد الشيعة ومقاطعة الناس للمساجد .

هذه العودة الى السنة كانت - بالنسبة للمغرب - ذات نتائج أهم وأخطر من النقلة الى التشيع على أيدي عبيد الله وخلفه . فلم يقتصر الأمر على قطع العلاقة بالفاطميين في مصر ، بل انتهى الى قلب الاوضاع في افريقية رأسا على عقب من النواحي السياسية والاقتصادية والبشرية انقلابا كانت له آثاره الدائمة وصداه البعيد في كل المغرب حتى المحيط الأطلسي . فقد قرر الفاطميون الانتقام من البلاد التي عاشوا فيها لحظات من المجد وفترات من الخوف ، والتي نزعنت النقباب عن

(١) ابن الأثير، الكامل، ج ١ ص ٣٦

(٢) انظر

G. Marçais, La Berbérie Musulmane et l'Orient au Moyen Age, p. 132 et suiv.

(١) ابن عذاري، البيان المغرب، ج ١ ص ٢٦٠ (أحداث سنة ٣٠٩) .
(٢) انظر سيرة جوذر (نشرة كامل حسين وشعمرة) ، ص ١١١ حيث يبعث المعز لجوذر بعض الدنانير المضروبة في مصر ويرجو أن يطول عمره حتى يحج معه ويعطيه مما يضرب له ببغداد .

وجها الحقيقى وكاشفتهم العدا . فأطلقوا عليها قبائل هلال وسليم فأحلت بها الخراب الاقتصادى والفوضى السياسية . فترك بنو زيرى ، داخل البلاد الى السواحل حيث داهمهم خطر النورماندين من صقلية ، واستدعى الأمر تدخل البربر من المرابطين ثم الموحدىن الذين ضموا افريقية الى املاكهم ووجدوا المغرب جميعا مع الاندلس ورحلوا العرب الى المغرب الأقصى وبذلك تم تعريب المغرب جميعا فى القرن الثانى عشر الميلادى ورغم انقضاء سلطان العرب ، وانتهى دور القيروان كعاصمة سياسية ومركز حضارى . وانتقل مركز الثقل من افريقية الى المغرب الأقصى الذى قام يحمى الاسلام ضد الخطر النصرانى المندلع من صقلية ومن اسبانيا . وهكذا قدر للمغرب الذى استقل تماما عن المشرق أن يعرف أعظم فترات مجده السياسى والحضارى على عهد الدولتين الوطنيتين الكبيرتين ، دولتى المرابطين والموحدىن ، وبذلك أصبح له طابعه الخاص وصفاته المميزة .

البلاد : لويبة

خلال هذه الفترة الحاسمة من تاريخ المغرب الاسلامى ، تأمل أن تلقى بض الأضواء على موقف « ليبيا » الحالية فيما بين دخول الفاطميين القيروان واستقرارهم فى القاهرة . والحقيقة أن المعلومات ليست كثيرة عن هذه الفترة ، وذلك طبعى فهى فترة اضطراب عام وفاق روى لا تدع مجالا مناسباً للانصراف الى الكتابة . وحتى النذر اليمى الذى كتبه المعاصرون من المناربة لم يصل الينا بل ضاع معظمه وسط هذه الدوامه الهائلة فلم يبق لنا منه الا تنف فى كتب المتأخرين . هذا عن المغرب بصفة عامة ، أما عن ليبيا بالذات فالأمر ليس بأحسن من ذلك بل هو أشد وأعسر : فالمنطقة الواقعة ما بين مصر وافريقية لم تحظ هى الأخرى الا بالقليل النادر من اهتمام هؤلاء الكتاب . وربما كان لهم العذر فى ذلك ، فالبلاد لم تكن فى الحقيقة الا طريقا موصلة أو منطقة فاصلة بين البلدين اللذين حبتها الطبيعة بظروف أسخى وأكرم . ولكن ليس معنى هذا أن المنطقة لم تكن مهمة أو أنها لم تقيم بدور خطير فى هذه الأحداث الجسام ، فحسبها مدينتاها الكبيرتان « الأزلتان » : برقة (أو أنطابلس) وأطرابلس . أما برقة التى أعطتها تربتها الفنية ذات اللون الأحمر اسم « المدينة الحمراء »^١ مثلها فى ذلك مثل مراكش وغرناطة ، فاشتهرت بزراعتها ومراعيها ، كما كانت تمتاز بجبلها الدائم الخضرة ، الكثير المياه والبساتين . أما عن

(١) البكرى ، المسالك والممالك ، طبعة De Siane ص ٣ ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، طبعة

شهرتها الحالية فى تربية الماشية ، فهى تركة اليهود الماضية . فال معروف أن أكثر ذبائح أهل مصر والاسكندرية كان من غنم برقة « لعظم خلقها وكثرة شعبها ولذة لحنها »^١ .

وأما طرابلس الميناء البحرى والمدينة التجارية ، وأكبر حواضر ليبيا ، فكانت تتباهى بكثرة أسواقها وفنادقها وحماماتها^٢ . هذا اذا تركنا ما كان من الذكر لأجدابية ذات البساتين والنخيل والحمامات والفنادق الكثيرة ، والأسواق الحافلة المقصودة^٣ . أو ما كان لسرت المدينة البحرية الكبيرة التى اشتهرت كسوق مهم رغم ما عرف به أهلها من سوء معاملتهم^٤ على عكس أهل طرابلس الذين وصفوا بأن « لهم سمح فى تجارتهم ، وأنهم أحسن الناس معاملة ضد أهل سرت »^٥ . أما عن صحراواتها وهضابها وبواديها وما فيها من محلات العرب والبربر ، فلا يمكن إهمالها ، كما قد يظن ، فقد كان لها دورها فى توجيه تاريخ البلاد ، كما كان لها نصيبها فى تحمل المصير المشترك . وهنا لا يمكن السكوت عن جبل نفوسة ومدنه الكثيرة وقراه التى تزيد على ٣٠٠ قرية^٦ ، ولا عن مدينة غدامس الصحراوية الكثيرة النخل والمياه ، التى تخصصت فى دباغة الجلود فذاعت شهرة الجلد الغدامسى^٧ . أما زويلة فكانت سوق الرقيق الذى يميز افريقية بالعبيد وبمنتجات

بيروت ، ج ٤ ص ٣٨٨ ، الادريسي طبعة Dozy ، ص ١٣١ ، وانظر محمد الطيب بن أحمد : ادرس الأشهب ، برقة العربية أمس واليوم ، طبع القاهرة ١٩٤٥ ، ص ٣٩ ؛ وكذلك مصطفى عبد الله بعبو ، المجلد فى تاريخ لويبا ، ص ٢٦ وهامش ١ (عن مدينة المرج حاليا) .

(١) انظر كتاب الاستبصار ، طبعة جامعة الاسكندرية ، ص ١٤٣
(٢) انظر البكرى الذى ينقل عنه المتأخرون ، ص ٧ - ٨ . وحتى بعد خراب البلاد على ايدي بنى هلال وبنى سليم ظلت طرابلس المدينة الوحيدة التى يجد فيها المسافرين حماما حتى يصل الاسكندرية (القلقشندي ، صبح الاعشى ، ج ٥ ص ١٠٤)

(٣) بكرى ، ص ٥ .
(٤) بكرى ، ص ١٥ ، ١٧ .
(٥) ناب الاستبصار ، ص ١١٠ .
(٦) بكرى ، ص ٩ ، وانظر الادريسي ص ١٠٥ .
(٧) البكرى ، ص ١٨٢ ؛ الاستبصار ، ص ١٤٥ ؛ القلقشندي ، صبح الاعشى ، ج ٥ ص ١٠٨ .

وأول ما نلاحظه أن اسم «لوية» الذي اتخذته البلاد الآن في شكل «ليبيا»، ليس له ذكر في مصادر هذه الفترة، وإن كانت مصادر عهد الفتح الأولى تذكره ما بين الحين والحين مصحوبا باسم مراقبة. وإن لم تبين ماهيته بوضوح. فالطبري مثلا لا يذكر لوية عند كلامه عن فتح انطاكس وبرقة^٢. أما ابن الأثير الذي ينقل عن الطبري ويضيف إليه، فإنه يذكر لوية ومراقبة ولكن ليس بمناسبة افتتاحهما أو دخول العرب فيهما وإنما بمناسبة الكلام عن بربر لواته. فيقول أن أصل البربر من نواحي فلسطين وإنهم ساروا إلى الغرب حتى انتهوا إلى لوية ومراقبة ومنها تفرقوا في أنحاء المغرب وفيما عدا ذلك يذكر: «أفها كورتان من كور مصر الغربية»^٣ دون أن يحدد موضعهما ولو بشكل تقريبي. ترتب على ذلك أن المتأخرين من أصحاب الموسوعات لم يستطيعوا أن يحددوا بشيء من اليقين موضع «كورة لوية ومراقبة». فاكثف ياقوت بالقول، بشكل عام، أن لوية مدينة بين الاسكندرية وبرقة، ثم عاد وبين أن الاسم يرجع إلى أصل يوناني وقد أطلق على الجزء المعروف قديما من شمال القارة الأفريقية، كما أطلق على القارتين الآخرين اسمًا أوروبا وآسيا^٤. أما القلقشندي فإنه اكتفى بالظن فقال: «والظاهر أن لوية غربي مربوط، وأن مراقبة غربي لوية، وهي آخر الديار المصرية من جهة الغرب»^٥. وإذا أخذنا بهذا الرأي يكون اسم لوية قد أطلق على جزء من صحراء مصر الغربية وهذا مقبول حسب مفهوم الكلمة عند اليونان، وهو ما أخذ به الكتاب العرب، وذلك ما يؤيده حديثا إطلاق اسم الصحراء الليبية على صحراء مصر الغربية وامتدادها في ليبيا جميعا.

ويرجع الفضل للمقريزي الذي يبين بوضوح أن آخر حدود مراقبة الغربية هي مدينة برقة نفسها وذلك عند المنطقة التي ينحرف فيها الطريق نحو الجنوب بحذاء

- (١) انظر البكري، ص ١٠. وتابع؛ ياقوت، معجم البلدان (طبعة De Goeje) ج ٣ ص ٩٦٠ - ٩٦١.
- (٢) الطبري، طبعة القاهرة ١٩٣٩، ج ٣ ص ٢٢٧.
- (٣) ابن الأثير، طبعة القاهرة ١٣٥٦ هـ، ج ٣ ص ١٣.
- (٤) معجم البلدان، طبعة القاهرة، ج ٧ ص ٢٤١. وانظر CH. - André Julien, Hist. de l'Afrique du Nord (Des origines à la Conquête Arabe) Paris 1951, p. 9.
- (٥) صبح الأعشى، ج ٣ ص ٣٩١.

ساحل خليج سرت أي نحو أجداية^٦. وعلى ذلك فإذا كانت مدينة برقة خارجة عن نطاق كورة لوية ومراقبة، فإن هذه الكورة أو مراقبه على الأقل كانت تشمل المنطقة الشرقية من ولاية برقة الحالية. ويؤيد ذلك ما ينقله المالكي في رياض النفوس بشأن انسحاب زهير بن قيس البلوي من إفريقية عقب استشهاد عقبة بن نافع فيقول: «فأقام زهير بالقيروان يسيرا ثم خرج إلى مصر، فوصل إلى لوبيا ومراقبة وذلك سنة خمسة وستين، فوجد يزيد قد توفي وعبد الله بن الزبير خليفة بمكة، ومروان ابن الحكم أميرا بالشام»^٧. وإذا ما عرفنا أن زهير لم يعد إلى مصر عقب انتصار كسيلة بل أنه رابط في برقة إلى أن ولاء عبد الملك على إفريقية^٨، اتضح أن المقصود بلوبيا ومراقبة هو ولاية برقة بصفة عامة. وإذا ما عرفنا أيضا أن المرجح أن تكون الأجزاء الشرقية من إقليم برقة وكذلك الأجزاء الشرقية المحيطة بمدينة قورينا القديمة (شحات حاليا) كانت قد ضمت معا منذ القرن الثاني الميلادي تحت اسم «مَرْمَرِيكا»^٩، ادمجت في مصر اتضحت صحة تحديد المقريزي «لمراقبة»، التي هي تعريب لاسم «مرمريكا»^{١٠}، من أنها كانت تشغل الجزء الشرقي من إقليم برقة، وتبين أن العرب ورثوا التقسيم الروماني القديم للبلاد.

نستنتج من كل ذلك أن التسمية الحديثة للبلاد وهي «ليبيا» ذات أساس تاريخي صحيح مثلها في ذلك مثل برقة أو طرابلس. وهذا لا يتعارض مع يذكره القلقشندي أو ابن تغري بردي من أن لوية أو لوية ومراقبة «كورة من كور مصر الغربية»^{١١}، فالجزء الشرقي من برقة على الأقل كان محسوبا من الديار المصرية^{١٢}،

- (١) الخطط، ج ١٦ (وفي آخر أرض مراقبة تلقى أرض انطاكس وهي برقة فإذا بلغت آخر أرض مراقبة عدت ذات الشمال واستقبلت الجنوب وتسير في الرمل وانت متوجه إلى القبلية يكون الرمل من مصبه عن يمينك إلى إفريقية وعن يسارك من أرض مصر إلى أرض الفيوم منها).
- (٢) المالكي، رياض النفوس، طبعة القاهرة ١٩٥١، ج ١ ص ٢٩.
- (٣) ابن الأثير، (طبعة ١٣٥٦ هـ) ج ٣ ص ٣٠٩؛ وانظر حسين مؤنس، فتح العرب للمغرب، ص ٢٠٥. وتابع.
- (٤) انظر مصطفى بعبو، مجمل تاريخ ليبيا، ص ٤١. وانظر عن ضم برقة وطرابلس إلى مصر على عهد روما وبيزنطة M.A. Orici, La Lutte entre Arabes et Byzantins, p. 63 ex note 3.
- (٥) المالكي، رياض النفوس، هامش ١ ص ٢٩ (الحسين مؤنس).
- (٦) صبح الأعشى، ج ٣ ص ٣٩٠؛ النجوم الزاهرة، طبعة مصر، ١٩٣٢، ج ٣ ص ١٨٦، ١٨٧.
- (٧) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٣ ص ٣٩٥ - ٣٩٦.

بل وأكثر من هذا كانت الاسكندرية وبرقة تكونان في أوائل القرن الرابع الهجري « مديرية » واحدة لها واليها المستقل عن والي مصر^١ .

وعلى كل حال لا يتكلم الكتاب الا عن ولايتي برقة المتاخمة لمصر وطرابلس المتاخمة لأفريقية، وكل منها تعتبر نظريا على الأقل من أعمال الولاية المجاورة لها. والحقيقة أن الحدود بين هذه البلاد جميعا ليست الا اعتبارية، ترسم الآن في خطوط على الخرائط ولا يوجد لها أثر على الطبيعة، فكل منها امتداد طبيعي للأخرى^٢ . ولكن اذا كانت مدينة طرابلس قد اعتبرت أول مدينة أفريقية^٣، فإن الأمر لم يكن كذلك بالنسبة لمرت التي كانت مع أجدادية تتبع الخلافة العباسية لتكون مثل برقة عملا من أعمال مصر^٤ .

هذه كانت حالة مدن ليبيا الرئيسية - الساحلية منها أو القريبة من الساحل - من الناحية الادارية والسياسية عند استيلاء الفاطميين على أفريقية . أما الهضاب والصحاري والبادي فلا يعرف موقعا بالضبط، الا أن قبائلها كانت تتمتع بحرية فعلية، ولم يكن لحكومة القيروان أو لحكومة الفسطاط سلطان عليها، مثل ذلك قبائل جبل نفوسة الخارجية غربي طرابلس، وقبائل لواتة وهوارة التي كانت تقيم في صحراء طرابلس وتسبب للمدينة كثيرا من المتاعب .

الفترة الأولى

أول ما يلفت النظر هو أنه بمجرد استقرار الفاطميين في أفريقية، وقفت مدينتا

(١) انظر عريب بن سعد القرطبي (صلة تاريخ الطبري، طبعة مصر، ص ٣١) الذي يورد أن برقة كانت تابعة لوالي الاسكندرية القاسم بن سيم سنة ٣٠١ هـ وانظر ابن تفرى بردي حيث يقول أن أهل لويبة ومراقية أجلاوا إلى الاسكندرية سنة ٣٠٤ = ٩١٦ خشيبة العسكر الفاطمي (النجوم الزاهرة، ج ٣ ص ١٨٦) أو أن عسكر الخليفة أجلى حباسة عن الاسكندرية وبرقة سنة ٣٠٢ = ٩١٤ (ج ٣ ص ١٧٣) .

(٢) أنظر P. Hubac, Tunisie (coll. l'Union Fr.) p. 7

(٣) ياقوت، معجم البلدان، طبعة بيروت، ج ٢ ص ٢١٧؛ صبح الأعشى، ج ٥ ص ١٠٤ (ينقل عن ياقوت)، ج ٥ ص ٩٩ . ولهذا السبب انضوت طرابلس تحت حكم الفاطميين دون أي مجهود بمجرد دخول أبي عبد الله القيروان، إذ أرسل قوة من رجاله إلى طرابلس أحضرت أخاه أبا القاسم الذي كان مستقلا بها وكذلك أم المهدي عبد الله . انظر ابن عذاري، البيان المغرب، ج ١ ص ٢٠٥ - ٢٠٦ .

(٤) ابن الأثير، ج ٨ ص ٢٤٥

ليبيا الكبيرتان موقعا غربيا بالنسبة للحكومة المركزية التي تتبعها كل منها . ولكن هذه الغربة لا تلبث أن تزول اذا عرفنا أن البلاد جميعا كانت تطاول جاهدة وبصفة مستمرة أن تتخلص من سلطان جارتها الكبيرتين وأنها عملت - منذ القدم، وما بين الحين والحين - على أن يكون لها كيائها الخاص وشخصيتها المستقلة، وأنها كانت تنجح في ذلك في كثير من الأوقات . انتهزت المدينتان إذن فرصة الانقلاب السياسي الذي حدث في المغرب، ورأتا أن تجربا حظهما في التحرر، فثارتا في وقت متقارب على حكومتيهما . وبدأ الاضطراب في ولاية طرابلس والخروج على الفاطميين سنة ٢٩٨ = ٩١١، فثارت قبائل هوارة بقيادة أبي هارون الهواري، وتحالفت معها في العصيان جماعات من زناته ولامية، وزحف الجميع إلى المدينة وضربوا حولها الحصار . ولكن عبيد الله المهدي تمكن من تشتيت شمل الثوار فأخرج اليهم قائده أبا زاكى تمام بن معارك الاجابي الذي قتل منهم مقتلة عظيمة، وبعث برؤوس القتلى وأذانبهم إلى رقادة حيث نصبت^١ . ورغم الحملات التأديبية والانتقامية التي وجهها عبيد الله ضد لامية وزناته فإن هذه الثورة كانت تمهيدا لثورة المدينة نفسها بعد سنتين . ففي سنة ٣٠٠ / ٩١٢ - ٩١٣ أعلن الطرابلسيون العصيان وقتلوا الحامية الكتامية وانتخبوا قائدا منهم هو محمد بن اسحق المعروف بابن القرشي . ووجه المهدي لحرب المدينة الثائرة جيشا بقيادة ابنه أبي القاسم، الذي كان قد حضر لتوّه من حرب العصاة في بلد كتامة، كما وجه اسطولا بحريا يتكون من ١٥ مركبا حربية . وقاومت طرابلس مقاومة شجاعة استمرت أشهرا وأظهر أهلها ضروبا من البسالة والبطولة . فما إن وصلت الحملة البحرية حتى أخرجوا إليها مراكبهم التي نجحت في احراقها والقضاء على من فيها من المقاتلة، وبذلك سجلوا أوائل مفارخهم كبجارة مهرة . أما أبو القاسم فإنه اتخذ طريق البر وعرج على منازل قبائل هوارة، نائفة الأمس، فأوقع بها ثم نزل على طرابلس وشدد الحصار عليها . ولم تستلم المدينة بالأمان الا بعد أن نفذ منها القوات حتى أكل الناس الميتة . وقبض أبو القاسم على زعماء الثورة وعلى رأسهم محمد بن اسحق، وصحبهم معه إلى القيروان حيث

(١) ابن عذاري، البيان المغرب، ج ١ ص ٢٢٥ - ٢٢٦ .

شهر بهم^١ ، أما عن أهل طرابلس فأنتهم أغرموا كل نفقات الحملة وترك أمر تعذيبهم واستخلاص الأموال منهم إلى القائد خليل بن اسحق - الذي سيفتخر فيما بعد بمذابحه في أهل صقلية - وهو من مواليد طرابلس ومن أبناء جندها^٢ .

وفي نفس هذا الوقت ثارت برقة، ولكن ضد حكم العباسيين الذين أنهوا حكم الطولونيين في مصر . ويفهم من رواية ابن تغري بردي^٣ أن الفاطميين كان لهم يد في تدبير الاضطراب إذا أثاروا الأعراب في المنطقة فخرج هؤلاء يهاجون حدود مصر . وكان ذلك بمثابة التمهيد لثورة المدينة نفسها التي انتهت بأن أغرقت في الدم ؛ إذا اعتبرت هذه الثورة خيانة من المدينة التي تعد ثغرا يحصى مصر من الخطر الشيعي المحدث بها ، وأخذت دون رحمة أو شفقة ، وانتقم من الثوار انتقاما يعبر عن الغيظ والتشفي - الذي يذكر بانتقام عبد الرحمن الداخل من الثوار العباسيين سنة ١٤٦/٧٦٣ - فقطعت أنوفهم وآذانهم وأرسلت إلى المشرق^٤ .

وشجعت ثورة برقة عبيد الله فعمل على الاسراع في محاولة غزو مصر . ففي السنة التالية (٩١٣/٣٠١) بعث بقائده حباسة بن يوسف على رأس قواته نحو المشرق ، وكانت الحملة نزهة عسكرية : إذ دخل حباسة مدينة سرت بالأمان ودون مقاومة بعد أن فر من كان بها من الجند العباسي ، وبعث بالنبا سريعا فأعلن فورا من أعلى منابر إفريقية . وتابع حباسة تقدمه فدخل أجداية بالأمان أيضا وهربت الحامية العباسية . وأتبع ذلك بدخوله برقة التي راحت ضحية انتقام الفاطميين بعد أن كانت بالأمس فريسة انتقام العباسيين ، فقتل من أهلها عدد كبير ، ثم أغرم الأحياء مفارم ثقيلة بلغ بعضها مائة ألف مثقال في يوم واحد . وكانت حجة حباسة في تكيهه بالبرقين أنه انتقم لما لحق الإمام عبيد الله بالمدينة من الاهانة ، عندما دخلها وهو

(١) ابن عذاري، البيان المغرب، ج ١ ص ٢٣٣ - ٢٣٤ ؛ وانظر ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة، ج ٣ ص ١٧٤ .

(٢) ابن الأثير، ج ٨ ص ٢٥ ؛ وانظر عريب بن سعد (صلة تاريخ الطبري، ص ٣٧) الذي يكتفي بذكر أنه فتح طرابلس وأخذ منها أموالا عظيمة ؛ وانظر التيجاني، الرحلة، طبعة تونس ١٩٢٧، ص ١٧٢ .

(٣) النجوم الزاهرة، ج ٣ ص ١٧٢ .

(٤) ابن الأثير، ج ٨ ص ٢٨ .

قادم من مصر ، إذ سرقوا ماله وشتموه ولطموه^١ . ووصل حباسة إلى الاسكندرية بعد أن هزم جيشا عباسيا في حدود برقة ، ولحق به أبو القاسم بن عبيد الله واتجه الاثنان نحو القيوم ولكنهما اختلفا فعاد حباسة مخالفا وانسحب الأمير الفاطمي أمام قوات العباسيين^٢ .

وعند عودة أبي القاسم (سنة ٩١٤/٣٠٢) مر ببرقة فخرج أهلها لاستقباله وتهنئته بالسلامة . ورد ولي العهد الفاطمي على تحيتهم بأنه ما عاد من مصر الا لطلب حباسة ليعاقبه على ما فعله بهم، وأمرهم بتجديد ما أصاب المدينة من الهدم والخراب، ثم ترك لديهم حامية من كتامة وعاد إلى والده . ولكن ما أن عرفت عامة الشعب بفشله في مصر، وباقترب الجيش العباسي الذي كان يتعقبه، حتى قامت إلى الحامية الفاطمية فقتلت أفرادها وأعلنت الثورة^٣ . واضطر عبيد الله المهدي إلى أن يسير الجيوش من جديد ضد برقة بقيادة أبي مدين بن فروخ الهيصي . وقامت المدينة طوال عام ونصف عام وهي محاصرة أشد الحصر، ولم تستسلم الا بعد أن فنى أكثر أهلها وذلك في سنة ٩١٦/٣٠٤ - ٩١٧ ، فاستصفت أموال من بقى منهم وأرسل

(١) ابن عذاري، البيان المغرب، ج ١ ص ٢٣٥ - ٢٣٦ ؛ الطبري (طبعة ١٣٥٨) لا يذكر إلا دخول أصحاب عبيد الله الذي يسميه «ابن البصري» برقة وطردهم عامل السلطان عنها (ج ٨ ص ٢٥٦) ؛ أما عريب بن سعد (صلة تاريخ الطبري، ص ٣٤) فيقول أنه وردت كتب التجار بدخول الشيعة برقة وعظم ما أحدثوا في تلك الناحية . وانظر المقرئ (اتعاظ الحنفا، نشر الشيال، القاهرة ١٩٤٨، ص ٨٣ - ٨٤ وهامش ٢) حيث يوجد نص يظن - رغم عدم وضوحه - أنه متعلق بهذه الحادثة . هذا النص يقول أنه بعد خروج المهدي من مصر « خرج عليه عدة من اللصوص بموضع يقال له «الطاحونة» فأخذوا بعض متاعه ومنه كتب وملاحم كانت لأبائه فعظم أمرها عليه . فيقال أنه لما خرج ابنه أبو القاسم ، في المرة الأولى ، إلى الديار المصرية أخذها من ذلك المكان . وانظر ابن الأثير (ج ٨ ص ٣٢ ، ٣٤) الذي يجعل قيادة حملة سنة ٣٠١ إلى أبي القاسم بن المهدي ، ويجعل مسير حباسة إلى الاسكندرية سنة ٣٠٢ (كما هو موجود في الطبري) ، وهذا ما لا يتفق مع رواية ابن عذاري المغربية التي أخذنا بها .

(٢) ابن عذاري، البيان المغرب، ج ١ ص ٢٣٦ ؛ وقارن ابن الأثير، ج ٨ ص ٣٤ ؛ وابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة، ج ٣ ص ١٧٢ - ١٧٣ .

(٣) ابن عذاري، البيان المغرب، ج ١ ص ٢٤٠ ؛ وانظر ابن تغري بردي (النجوم الزاهرة، ج ٣ ص ١٧٣) الذي يقول أن عسكر الخليفة أجلى حباسة عن الاسكندرية وبرقة .

زعماء الثورة الى المهدي فأمر بقتلهم^١. وظل أبو مدين بن فروخ واليا لبرقة الى حين وفاته في سنة ٩١٩/٣٠٦ وهي السنة التي دخل فيها الجيش الفاطمي الى مصر للمرة الثانية^٢.

وهكذا دخلت مدن ليبيا تحت الحكم الفاطمي وضمت الى افريقية، وعين لها العمال والجباة والقضاة من الاسماعلية^٣، إلا أن خضوعها ظل مؤقتا كالمعتاد. أما البوادي فرغم أن الفاطميين كانوا يكتفون منها بالركون الى الهدوء والسكينة بعد دفع ما هو مقرر عليها من الأموال، فانها عمدت كدأها الى اثار الاضطراب ومهاجمة المدن والحضر كلما وجدت الى ذلك سبيلا. ويعبر عن ذلك ما ينسب الى المعز من أنه أوصى بلكين بن زيري بألا يرفع الجباية عن أهل البادية ولا السيف عن البربر وأن يفعل مع أهل الحاضرة خيرا^٤. ففي سنة ٩٢٢/٣١٠ - ٩٢٣ ثارت قبائل نفوسة في منطقتها الجبلية النبعة، والخارجة أبدا على السلطان بزعامه رجل يدعى «أبو بطة»^٥. وعندما سير اليهم عبيد الله قائده على بن سليمان تمكنوا من مفاجأة قواته التي انهزمت أمامهم، واضطر القائد الى الالتجاء الى مدينة طرابلس. وسير المهدي أمدادا جديدا الى على بن سليمان الذي عاود ضرب الحصار حول المنطقة الثائرة، ولكنه لم يصل الى نتيجة حاسمة^٦. وفي سنة ٩٢٨/٣١٦ اضطرب البربر في منطقة برقة فسار اليها أبو القاسم بن عبيد الله وضرب الحصار على حصنهم المعروف بأعزر وتمكن من هدم أسواره على المدافعين الذين أحرقوا أمتعتهم وعرقبوا دوابهم ومواشيهم ودافعوا عن أنفسهم دفاع اليأس المستميت^٧.

وفي نفس هذه السنة كان أبو يزيد الزناتي «صاحب الحمار» وثائر أوراس الكبير، الذي كاد أن يقضى على ملك الفاطميين، لاجئا في مدينة طرابلس وذلك في ابتداء أمره. وكان قد خرج من ققيوس (من بلاد الجريد) - حيث بدأ دعوته وهو يعلم الصبيان - اثر مقتل عاملها الفاطمي بتحريض منه، وخشية على نفسه، فعزم على الابتعاد عن البلاد وقرر القيام بفريضة الحج. ولكن ما ان وصل الى طرابلس حتى وصلت في أعقابه كتب المهدي في طلب جماعة من البربر ممن حامت حولهم الشبهات، فرأى أبو يزيد أن يهرب وعاد الى ققيوس مستترا حيث بدأ عمال عبيد الله في البحث عنه^٨. وظلت طرابلس آمنة تقبل عمال الشيعة من القضاة والجباة فلا تذكر النصوص اضطراب منطقتها الا سنة ٩٣٢/٣٢٤. ففي هذه السنة توفي عبيد الله المهدي والظاهر أن القبائل المحيطة بالعاصمة الغربية وجدت في موته فرصة مواتية للتحرر من سلطان العبيديين. قام بزعامه الثورة رجل من العرب يعرف بأبن طالوت القرشي، وادعى أنه علوي وأنه ابن المهدي، فأسرت قبائل البربر بتصديقه والتفوا حوله، وسار الدعي الفاطمي الجديد بأنصاره الكثيرين نحو مدينة طرابلس، ولكن نجحت حاميتها بمساعدة الطرابلسيين من رد المهاجمين الذين زعزعتهم الهزيمة وأضعفت ايمانهم بالدعي، فثاروا به وقتلوه، وبعثوا برأسه الى الامام الجديد أبي القاسم^٩. وما ان انتهت الثورة في منطقة طرابلس حتى سير القائم جيشا الى برقة حيث أنضم اليه جزء من حاميات كتامة هناك، وتابع الجميع سيرهم نحو الاسكندرية فدخلوها ولكنهم انهزموا بعد ذلك أمام قوات الاخشيديين^{١٠}.

ولا يذكر الكتاب شيئا عن ليبيا بعد هذه الأحداث الى نهاية عهد القائم (٩٤٦/٣٣٤) وكذلك خلال عهد المنصور (٩٤٦/٣٤١ - ٩٥٣) أي أثناء تلك الفترة التي شغلها الصراع ضد أبي يزيد اليفرنى الزناتي، رغم أن منطقة طرابلس كان يتردد فيها صدى الثورة المندلعة من الجنوب التونسي المتناخم لها. ولكن لما كانت الحرب

- (١) ابن عذارى، البيان المغرب، ج ١ ص ٢٤١.
- (٢) نفس المصدر، ج ١ ص ٢٥٤؛ وانظر الطاهر احمد الزاوي، الفتح العربي في ليبيا، ص ١٦٧ (يكتب أبو مدينى بدلا من «أبو مدين»).
- (٣) هناك ذكر لبعض عمال وولاة وقضاة طرابلس وبرقة في هذا العصر في كتاب ابن عذارى (انظر البيان المغرب، ج ١ ص ٢٥٣، ٢٦٥، ٢٩٠، ٢٩١).
- (٤) انظر ابن خلكان (طبعة ١٩٤٨)، ترجمة بلكين بن زيري، ج ١ ص ٢٥٧.
- (٥) ابن عذارى، ج ١ ص ٢٦٣.
- (٦) هنا لا يمكن التأكد من صحة نص ابن عذارى (البيان، ج ١ ص ٢٧٢) والارجح أن النص محرف وأن المقصود بموضع هذه الواقعة ليس برقة إذ تمته أن هوارة هوارة ولماية خضعتا اثر ذلك فأمّنهم أبو القاسم الذي سار الى تاهرت. وعلى ذلك ليس من البعيد أن يكون حصن أغرر المذكور في المغرب الأوسط.
- (٧) ابن عذارى، البيان المغرب، ج ١ ص ٢٧٣؛ وانظر القريري (اتعاط الحنفا، ص ١٠٩) الذي يحدد بدء خروجه بسنة ٣١٦ على أيام المهدي.
- (٨) ابن عذارى، البيان المغرب، ج ١ ص ٢٩٥ - ٢٩٦؛ ابن الاثير، ج ٨ ص ١٠٧ (ينقله القريري في اتعاط الحنفا، ص ١٠٨).
- (٩) ابن عذارى، البيان المغرب، ج ١ ص ٢٩٦؛ ابن الاثير، ج ٨ ص ١٠٧.

حتى نسب بعض الكتاب مقتله إلى رفقاء هذه الليالي بعد أن سكرُوا وعربدُوا عليه^١.

أما موانئ ولاية برقة فقد ازدادت أهميتها العسكرية الاستراتيجية مثلها في ذلك مثل طرابلس . فبينما ازدادت أهمية طرابلس بعد أن أصبحت من قواعد أسطول صقلية ، استرعت موانئ برقة أنظار المعز لوقوعها في الطريق البحري إلى مصر ولما كان استخدامها للتدخل في شئون جزيرة اقريطش (كريت) . فعندما عجزت الخلافة العباسية ومصر عن حماية مسلمي الجزيرة طلب هؤلاء المساعدة من المعز . ورأى المعز أن يستفيد من الموقف إلى أقصى حد فيتخذ من تدخله في شئون كريت ذريعة للتدخل في شئون مصر ، ودبر خطة للعمل المشترك بينه وبين الأخشيديين . هذه الخطة كانت موضوع خطاب رسمي بعث به المعز إلى صاحب مصر وقتله أبو حنيفة النعمان بن محمد الفقيه الأسماعيلي في كتابه المسمى بالمجالس والمسائرات^٢.

حث المعز في هذا الخطاب أبا الحسن على الأخشيد على الجهاد وامداد أهل كريت بالمراكب ، ولنت نظره إلى أن تدخل الأسطول الفاطمي — تلبية لدعوة الكرنتيين المسلمين — لا يستمدى تخليه عن هذا الواجب ، بل ربما كان من المصلحة أن يعمل الأسطولان سوياً . وهو بعد أن طمأن الأخشيدي على مراكبه وأعطاه الموائيق والعهود طلب منه أن يبعث المراكب المصرية إلى مرسى « طبرقة »^٣ من أرض برقة لقربه من جزيرة اقريطش . وحدد المعز موعد اجتماع المراكب المصرية بالمراكب الفاطمية في مرسى برقة الشرقي هذا في أول ربيع الثاني (من سنة ٣٥٠) . وختم المعز خطابه هذا بأنه سيرسل — على كل حال — أساطيله لمساعدة المسلمين في الجزيرة سواء وافق الأخشيدي أم لم يوافق .

كل هذا يبين أن ليبيا تمتعت بنوع من الاستقرار والرخاء كما احتلت مكانا مرموقا في السنوات الأخيرة من عهد الفاطميين بآفريقية ، وأن ذلك كان نتيجة طبيعية

- (١) انظر ابن خلكان، ترجمة محمد بن هاني، ج ٤، ص ٤٩ - ٥٠ .
- (٢) انظر حسن إبراهيم وطه شرف، المعز الدين الله، طبعة القاهرة ١٩٤٧، الملحق الاول ص ٣٠٣ - ٣٠٤ .
- (٣) هذه الكلمة موجودة في النص في شكل « طينة » وهذا غير صحيح فطينة من مدن الراب ، ولهذا وضعنا بدلا منها « طبرقة » أي ميناء برقة الشرقي فهذا اقرب إلى الصواب .

لتوجيه سياسة الخلفاء وجهة مشرقية ولا سيما على عهد المعز الذي تم على عهده فتح مصر .

الفترة الثانية :

وفي يوم ٢١ من شوال سنة ٣٦١ / ٩ أغسطس ٩٧٢ خرج المعز لدين الله من المنصورة قاصدا مصر وفي نيته عدم الرجوع إلى المغرب . ولم يسر المعز نحو المشرق مباشرة بل أقام حوالي شهرين في قرية سردانية القريبة من القيروان انتظارا لاجتماع رجاله وثام عددها . وفي يوم ٢٠ من ذي الحجة / ٣ أكتوبر رحل المعز عن سردانية بعد أن استخلف على البلاد يوسف بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي . وتقول الرواية أن المعز عرض التفويض في أول الأمر على قائده أبي احمد جعفر بن علي ولكن هذا طلب أن يتمتع بما يشبه الاستقلال التام عن الخلافة « لبعد ما بين مصر والمغرب » حتى أغضب المعز . أما بلكين فانه تحفظ عندما عرض عليه الاستخلاف ثم قبله بشرط أن يولى المعز القضاء والخراج لمن يراه ، ويولى الخير لمن يثق به ، وأن يجعله قائما بين أيديهم لمواجهة العصاة بينما يكون الامر لهم^٤ .

ويغلب على الظن أن هذه الرواية موضوعة فيما بعد ، وأنها تعبر عن الحالة الراهنة وقتذاك وعمما اتخذ المعز من الاجراءات لضمان بقاء آفريقية تحت سلطانه . فهو لم يجعل بلكين يستبد بالبلاد رغم ما أعطاه من سلطات واسعة ، بل جعل إلى جانبه عاملا لجباية الأموال هو زيادة الله بن القديم ، وعاملين على الخراج هما عبد الجبار الخراساني وحسين بن خلف الموصدي^٥ ، وكان هؤلاء يتبعون المعز مباشرة بطبيعة الحال .

ويؤيد هذا الرأي ما تنسبه الرواية السابقة إلى المعز من أنه كان يعرف ان المسألة ستنتهي بافراد بلكين بالأمر اذا ما تطاولت المدة . ولهذا السبب أيضا لم يكن تقليد بلكين شاملا لكل الأملاك الفاطمية في المغرب ، وذلك أن المعز أخرج ليبيا جميعا من امارته بما فيها مدينة طرابلس التي كانت تتبع آفريقية في معظم الأحيان

- (١) انظر ابن خلكان، ترجمة المعز، ج ٤، ص ٢١٤ ؛ ، انعاظ الحنفا ، ص ١٤٤ .
- (٢) المقرئ ، انعاظ الحنفاء ، ص ١٤٢ .
- (٣) ابن الاثير ، ج ٨، ص ٢٤٥ .
- (٤) المقرئ ، انعاظ الحنفاء ، ص ١٤٣ .

والتي كانت تعتبر أول مدنها الشرقية .

وهكذا انشأ المعز ولاية جديدة تتكون من طرابلس وسرت وأجدابية ، وفصلها عن إفريقية وعهد بولايتها الى أحد قواد كتامة وهو عبد الله بن يخلف الذي كان أسيرا عنده^١ . ولا شك أن هذه السياسة من جانب المعز كانت تهدف الى استرضاء كتامة ، رجال دولته ، باطلاق ذلك الزعيم واقطاعه النصف الغربى أو ما يزيد على النصف من ليبيا ، ثم العمل على الحد من نفوذ بلكين الصنهاجى حتى لا يفكر فى استغلال مركزه وتقوية نفوذه خشية جاره القوى . وكذلك كان الامر بالنسبة لصقلية التى ثبت فى ولايتها بنى أبى الحسين من أبناء الحسن بن على مؤسس أسرة الكلبيين بالجزيرة^٢ .

ترتب على هذا الاجراء الذى أريد به اقامة التوازن بين نواب المعز ان انقسمت أملاك الفاطميين المغربية الى ثلاث ولايات منفصلة هى : إفريقية (التي ستصبح تونس فيما بعد) وما بين برقة وقابس (التي أصبحت ليبيا الآن) ثم صقلية (التي انفصلت عن أملاك الاسلام بعد أن استرجعتها أوروبا بعد قليل) ، وكان ذلك تمهيدا لقيام أسر مستقلة فى كل منها .

وسار موكب المعز الضخم نحو مصر بأحمال الذهب والفضة ، يتقدمها تواييت أسلافه ، وتحيط بها قواته وحاشيته ، ووصل الى طرابلس عن طريق قابس . وفى طرابلس انتهزت فرقة من رجاله ، كان قد ساءهم أن يهاجروا الى المشرق ، الفرصة فهربوا الى جبال نفوسة ، واعتصموا بالمنطقة الخارجة أبدا على القانون ، وفشلت

(١) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٢٤٤ - ٢٤٥ ؛ وانظر الطاهر احمد الزاوى ، تاريخ الفتح العربى فى ليبيا ، ص ١٧٣ .

(٢) نلاحظ هنا أن ابن الأثير (ج ٨ ص ٢٤٥) الذى ينقله المقرئى فى اتعاظ الحنفاء ص ١٤٤ يقول أن المعز عهد بالجزيرة الى الحسن بن على ولكن الحسن كان قد مات فى سنة ٣٥٤/٩٦٥ (انظر سيرة جوذر ، هامش رقم ١٢٢ ص ١٨٧) . أما الذى ولى الجزيرة بعده فهو ابنه احمد الذى توفى قبل مسير المعز الى مصر ثم ابنه الثانى أبو القاسم الذى ظل يليها من سنة ٣٥٩ الى سنة ٣٧٢ (انظر حسن ابراهيم وطه شرف ، المعز لدين الله ، ص ٦٣) . ولزيادة المعلومات انظر الفصول الخاصة ببنى أبى الحسين فى

Michele AMARI, Storia dei Musulmani di Sicilia :

(عن بداية الحسن بن على ج ٢ ص ٢٣٧ ، ٢٧٥ وعن أسرة بنى الحسن فى الجزيرة ابتداء من صفحة ٢٧٩) .

مجهودات المعز فى استرجاعهم^١ . وتابع الموكب الملوكى سيره مارا بسرت وأجدابية والمعز يقيم بعض الأوقات فى بعض المواضع ، ويجد السير فى بعضها الى أن وصل برقة فى ١٤ جمادى الاولى سنة ٣٦٢/٣٠ فبراير سنة ٩٧٣ ونزل بالقصر خارج المدينة^٢ بموضع يعرف بمياسر^٣ . وهناك فقد المعز شاعره المشهور محمد بن هانىء الأندلسى ، ويظن أنه اغتيل لمعالاته فى مدح المعز حتى اتهم بالكفر ، وذلك فى اواخر رجب/ابريل^٤ . وفى برقة أيضا توفى عم المعز وهو يوسف بن القائم^٥ . كما توفى مولاه جوذر الصقلى فنقل الى القصر حيث دفن بجامعة^٦ . ووصل المعز الى الاسكندرية فى اواخر شعبان/مايو ، ودخل القاهرة فى رمضان بعد رحلة استغرقت حوالى العام .

وبمجرد أن استقر بلكين فى امارته أظهر جدارة بالمنصب الكبير : فهزم الثوار الذين ظنوا أن الفرصة سنحت للتحرر من سلطان القيروان فى باغاية وفى تاهرت كما قهر زناته قرب تلمسان . والظاهر أنه شعر أو كان يشعر بقوته ومكائنه فبدأ بمارس سلطانه كأمر مستقل دون أن يقيم وزنا لعمال الخليفة الفاطمى . وهكذا انتهى أمر زيادة الله بن القديم الذى كان قد عينه المعز على جباية الأموال الى الموت أو الاغتيال سنة ٣٦٦/٩٧٦ - ٩٧٧ فى سجن عبد الله بن محمد الكاتب ، الذى آل اليه تدبير دولة بلكين^٧ . أما صاحب الخراج حسين بن خلف فانه كان قد ثار سنة ٣٦٤/٩٧٤ - ٩٧٥ على بلكين وجمع حوله البربر - ربما فى نفس الوقت الذى بدأ فيه النزاع بين زيادة الله وعبد الله الكاتب^٨ .

ورغم هذا ظل الامير الصنهاجى يحافظ على الشكليات : من اظهار الخضوع

(١) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٣٤٤ - ٢٤٥ .

(٢) المقرئى ، اتعاظ الحنفاء ، ص ١٨٦ .

(٣) سيرة جوذر ، ص ١٤٧ .

(٤) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٢٤٥ ؛ وانظر ابن خلكان (ترجمة ابن هانىء) ، ج ٤ ص ٤٩ - ٥٠ .

(٥) المقرئى ، اتعاظ الحنفاء ، ص ١٢٧ .

(٦) سيرة جوذر ، ص ١٤٧ .

(٧) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ١ ص ٣٢٨ ؛ ابن الأثير ، ج ٨ ص ٢٤٥ .

(٨) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٢٤٦ (النص هنا غير واضح بشكل أكيد ولكن هذا هو التفسير المقبول) .

والولاء للخليفة بالقاهرة كلما تطلبت الظروف . فعقب وفاة المعز سنة ٣٦٥/٩٧٦ أرسل بلكين بعثة الى القاهرة تحمل الى الخليفة الجديد العزيز بالله هديته وتهنئته بالولاية ، وتؤكد له الطاعة^١ . هذا وسيسير أبناء بلكين على هذا المنهج كلما اعتلى خليفة جديد عرش مصر .

وفي سنة ٣٦٧/٩٧٧ - ٩٧٨ قام عامل بلكين وهو عبد الله الكاتب بارسال أكثر من ٤٠٠ ألف دينار كان قد جمعها في السنة السابقة قهرا من أهل القيروان الى القاهرة ، ربما لشراء رضا الخليفة عنه ولاقناعه بأنه ليس بأقل غناء من عامله الذي مات في سجنه . ورغم أن العزيز أمر برد المال الى أصحابه الا انه أظهر رضاه عن بلكين فلم يكتف بأن جدد له تقليد ولاية إفريقية بل ولاه أيضا على الجزء الغربي من ليبيا ، فأضاف اليه طرابلس وسرت واجدانية وما يتبعها من الاعمال^٢ . وعهد بالقيادة العسكرية للأملاكه الليبية الى أبي الفتح يحيى بن خليفة الملياني ولكنه عزله بعد شهور^٣ . وهكذا فأتت العزيز حكمة والده المعز من فضل هذا الجزء من ليبيا عن إفريقية ، واخراجه عن سلطان بلكين ، فزادت قوة هذا الأخير الذي كان يظهر الطاعة « مجاملة ومراقبة لا مائل وراءها » كما يقول ابن الأثير^٤ .

- (١) ابن عذارى، البيان المغرب، ج ١ ص ٣٧٩ .
(٢) ابن الأثير، ج ٨ ص ٢٦٣ ؛ ابن عذارى، البيان المغرب، ج ١ ص ٣٢٩ (لا يذكر الا طرابلس ونواحيها فقط) ، وانظر .

G. Margais, La Berbérie Musulmane, p. 158.

- (٣) ابن عذارى، البيان المغرب، ج ١ ص ٣٢٩ .
(٤) الكامل، ج ٨ ص ٢٦٤ . هذا ولو أن يوسف بلكين عمل في السنة التالية ٣٦٨/

٩٩٧ على أن يؤكد حسن ثقة العزيز فيه ، فقام باسمه بحملة كبرى في بلاد المغرب فوصل بجيوشه الى فاس واستولى عليها ودخل سجلماسة ، وطرد عمال بنى أمية الأندلسيين ، وهدد سبتة الأموية ثم عاد الى البصرة وخرّبها وكانت للأمويين أيضا . ثم طارد زنانه أعداء الصنهاجيين حتى الجاهم الى الرمال في اقاصي المغرب ، وأخضع برغواطية في جبال أطلس وقتل متبنيهم صالح بن عيسى ، وظل مقيما بالمغرب الى سنة ٣٧٣/٩٨٣ . وخلال تجواله هذا في المغرب كانت الخطابات الرسمية ترد اليه على البريد من القاهرة تثني على حسن بلائه ضد أعداء سادته المقيمين في مصر (انظر ابن الأثير ، ص ٢٦٤ ؛ ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ١ ص ٣٣٠ ، ٣٣٨) . ولكن عندما وصلتته هناك رسالة من مصر تطلب منه اختيار وارسل ألف فارس من أبطال صنهاجه ، كتب يعتذر بلزومهم له في حربه ضد الأمويين امراء الاندلس ، وهدد بأن يترك المغرب اذا ما أصر الخليفة . واكتفت القاهرة بالسكوت وعدم الرد (ابن عذارى، البيان المغرب ، ج ١ ص ٣٢٠) . ومات يوسف بلكين في =

ورغم أن المنصور بن بلكين الذي ولي في أوائل سنة ٣٧٤/٩٨٤ عقب وفاة والده ، قام بارسال البعثة التقليدية الى القاهرة تحمل ولاءه وطاعته للخليفة بصفته الأمير الجديد للولاية التي ورث امارتها عن والده ، وتطلب بالتالي تقليد الخليفة وعهده ، ورغم أن الهدية التي حملها المبعوث كانت ثمينة تحوى من الدواب والأمتعة والطرف ما يقدر الكتاب - بشئ من المبالغة - بمليون دينار ، فإن اتجاه المنصور الى التحرر من سلطان مصر واعتقاده في استقلاله وسيادته كان واضحا منذ البداية . ويعبر عن ذلك خطبته التي خطبها في أعيان القيروان الذين ذهبوا لتعزيته وتهنئته بمدينة أشير حيث كان يقيم . فهو بعد أن وعدهم بالخير والاحسان اليهم ، على عكس ما نهج عليه والده وجده من سياسة القهر والعنف ، قال : « وما أنا في هذا الملك ممن يولى بكتاب ويعزل بكتاب (ويشرح ابن الأثير ذلك بأنه يعني أن الخليفة بمصر لا يقدر على عزله بكتاب) لأنى ورثته عن آبائي وأجدادي وورثوه عن آبائهم وأجدادهم حمير^١ » . ومع هذا فإن كتاب التقليد الذي يستهين به كان مهما بالنسبة له ، فهو يقوى من سلطانه ويؤكد شرعيته ، وعلى ذلك فعندما وصل في سنة ٣٨٢/٩٩٢ سجل من العزيز بالله بولاية المهدي لابنه باديس سر بذلك سرورا عظيما وجاءته الهداية من كل مكان^٢ . حدث ذلك بعد اضطرابات كئامة سنة ٣٧٦/٩٨٦ - ٩٨٧ ، وستة ٣٧٨/٩٨٧ - ٩٨٨ بتحريض العزيز وقهر المنصور لهم^٣ .

اواخر سنة ٣٧٣/٩٨٤ وهو في طريقه من امام سبتة الى سجلماسة التي دخلها خزرون بن فلفول الزناتي وقتل بها عامل بلكين (ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ١ ص ٣٤١) .

- (١) ابن عذارى، البيان، ج ١ ص ٣٤٣ - ٣٤٤ ؛ ابن الأثير، ج ٩ ص ١٤ .
(٢) ابن الأثير ، ج ٩ ص ١٤ ؛ ابن عذارى، البيان المغرب ، ج ١ ص ٣٤٣ . وانظر G. Margais, La Berbérie Musulmane, p. 160
هنا يظهر أن جورج مارسيه استند الى الترجمة الفرنسية لبيان ابن عذارى دون أن يرجع الى النص فهو يترجم كلمة « حمير » التي يقصد بها ملوك اليمن الحميريين بكلمة « حمير anes » ويترتب على ذلك أنه يغير في المعنى بحيث يصبح « وورثوه عن آبائهم وأجدادهم ولكن أجدادهم كانوا حميرا »
(٣) ابن عذارى، البيان المغرب، ج ١ ص ٣٥٢ .
(٤) ابن الأثير، ج ٩ ص ٢٢، ٢٧ - ٢٨ ؛ ابن عذارى ، البيان المغرب، ج ١ ص ٣٤٥ - ٣٤٦ ، وانظر

G. Margais, La Berbérie Musulmane, p. 160 - 161

وتوفي المنصور بن بلكين سنة ٣٨٩/٩٩٦ وهى نفس السنة التى توفى فيها العزيز بالله ، ولا ذكر لليبيا الغربية التى ضمت الى دولة صنهاجة ، ولا للجزء الشرقى منها الذى ظل تابعا لمصر . ولكن بولاية باديس بن المنصور وخلافة الحاكم الفاطمى تغيرت الأمور الى حد كبير . فبعد أن كان مركز الصراع بين العزيز والمنصور فى المغرب الاوسط حيث سار دعاة القاهرة يؤلبون كتامة فى منطقة سطيف ضد تابعها القوى ، انتقل مسرح هذا الصراع الى ليبيا الغربية ومنطقة طرابلس ، وذلك رغم تبادل تجديد العهد والبيعة ، وتبادل الهدايا الذى أصبح أمرا شكليا وتقليديا . ففى سنة ٣٨٩/٩٩٩ قامت زناته بالمغرب الأقصى والأوسط بقيادة زيرى بن عطية صاحب فاس وتأثرت لنفسها من الهزائم التى ألحقها بها يوسف بلكين وابنه المنصور من قبل . فرحف ابن عطية الى تاهرت ، وهناك حاصر يطوفت عم باديس ، ثم هزم الجيشين اللذين اخرجهما باديس لانتقاد تاهرت وأولهما بقيادة عمه حماد صاحب أشير ، وثانيهما بقيادة كاتبه محمد بن أبى العرب . وخرج باديس بنفسه للقاء زيرى بن عطية ، وعرج فى طريقه على طبنه حيث كان فلفل بن سعيد حفيد خزرون الزناتى الذى قاتل جده بلكين فى سجالماسه^٢ وابن سعيد الذى لجأ سنة ٣٧٩/٩٨٩ - ٩٩٠ الى والده المنصور فأكرمه وقربه وولاه طبنه من بلاد الزاب^٣ .

وطلب باديس من فلفل بن سعيد الخروج معه ولكن هذا اعتذر وطلب توليته طبنه ، اقطاع أبيه ، حتى يضبطها فولاه اياها . ولكن ما أن بعد باديس حتى تملكت فلفل العصبية والعداوة القديمة فمضى يفسد فى البلاد حتى باغاية . كل هذا وجموع زناته تلتف حوله ، وكذلك أعمام باديس الساخطون عليه ، حتى طمع فى امتلاك القيروان .

وعاد باديس من حملته والتقى بفلفل وتمكن من هزيمته قرب مرمجة بعد قتال مرير راح فيه أكثر من ٧ آلاف رجل من زناته وزويلة . ولكن الثائر الزناتى اعتصم

(١) انظر ابن عذارى، البيان المغرب، ج ١ ص ٢٥٦ - ٢٥٧ .

(٢) انظر فيما قبل هامش ٤ ص ٩٧ .

(٣) ابن عذارى، البيان المغرب، ج ١ ص ٣٤٩ ؛ ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ص ١٥٧

بالصحراء ، ثم اتجه الى منطقة طرابلس^١ . وطوال سنة ٣٩٠/١٠٠٠ ظل فلفل رافعا راية العصيان ، ولكنه لم يستطع أن يواجه قوات باديس فى معركة منظمة ، وخاصة بعد أن انفض عنه كثير من أتباعه ولا سيما عمومة باديس فلم يبق معه منهم الا ماكسن وابناء محسن وباديس الذين قتلوا أثناء الصراع فيما بعد^٢ . وعلى ذلك اتبع فلفل فى ثورته فنا حرييا معروفا لدى البربر وهو يتلخص فى الفرار والاقسام بالصحراء أو الجبال أمام قوات الأمير اذا ما طارده ، ثم العودة الى مهاجمة المدن والمناطق العامرة بعد رجوعها .

ومع أن حوادث هذه الفترة مختلطة متداخلة يصعب على الباحث توقيتها بشكل دقيق فانه يمكن ترتيب أحداث ليبيا على الوجه التالى : أثناء انشغال الامير الصنهاجى بشورة زيرى بن عطية فى المغرب الأوسط والأقصى ، وخلال ثورة فلفل وانضمام الأمراء الصنهاجين اليه ، خرجت مدينة طرابلس على باديس سنة ٣٨٩/٩٩٩ عن طريق تدخل الخليفة الحاكم ، الذى رأى أن يصطاد فى الماء العكر ، فاتصل بنائب باديس بها وحرضه على الخروج على سيده . وأعلن الوالى خلع طاعة باديس وطلب ارسال قوة فاطمية للدفاع عن المدينة ولضبطها . وصدرت الأوامر من القاهرة الى والى برقة وهو يانس الصقلى الذى كان من أخصاء الحاكم بالمسير على رأس جيش لاستلام المدينة ، وتم ذلك فى السنة التالية^٣ .

وهكذا كان على باديس أن يواجه تدخل الحاكم الى جانب عصيان فلفل . وبدأ يستفسر عن الغرض من دخول القوات الفاطمية طرابلس ، وعن شرعية عمل يانس . ولما لم يجد جوابا شافيا أرسل جيشا بقيادة جعفر بن حبيب تمكن من قتل يانس وهزيمة رجاله خارج المدينة ثم ضرب الحصار عليهم بعد أن اعتصموا بها^٤ . حدث ذلك وفلفل بن سعيد ثائر فى المنطقة يراوغ قوات الامير الذى كان يتتبع أنباء

(١) ابن الاثير، ج ٩ ص ٦٣ - ٦٤ ؛ ابن عذارى، البيان المغرب، ج ١ ص ٥٩ - ٦٠ .

(٢) ابن عذارى، البيان المغرب، ج ١ ص ٢٦١ ؛ ابن خلدون (الترجمة) ، ج ٢ ص ١٧ .

(٣) ابن الاثير، ج ٩ ص ٦٤ .

(٤) ابن الاثير، ج ٩ ص ٦٤ ؛ وانظر احمد النائب الأنصارى ، المنهل العذب فى تاريخ طرابلس الغرب، ص ٩٤ - ٩٥ .

تحركاته عن طريق عماله في تلك الجهات . وفي ٢٣ من رجب ٣٩١/١٩ يونية ١٠٠١ وصلت كتب عامل قابس تذكر أن الثائر مر من طريق قابس في اتجاه طرابلس . وفعلا وصل فلفل بينما انسحب القائد الصنهاجي الذي خشي الوقوع بين الزناتين من خارج طرابلس والفاطميين من داخلها ، وتقادى طريق قابس فاتجه نحو الجبل جنوبا . وخرج وفد من الطرابلسيين برئاسة واليها فتوح بن علي وهو من قواد يانس لاستقباله وفتحوا له الأبواب . ولما كانت العامية الفاطمية المحصورة بطرابلس قد طلبت النجدة من مصر ، جهز الحاكم جيشا بقيادة يحيى بن علي الأندلسي ، أخى جعفر بن علي قائد المعز لدين الله ومناقص بلكين ، وبصحته زيدان الصقلي الذي كان اليه تدبير شؤون الحملة . ومر الجيش في الطريق ببرقة حيث كان عليه أن يتزود منها بالمال . وأصيب يحيى بخيبة أمل مريرة إذ كانت خزانة برقة خاوية ليس فيها أموال ، فكان ذلك سببا في تمرد الجند وعدم انتظامه . وواصلت الحملة طريقها فوصلت في ربيع الأول سنة ٣٩٢/يناير ١٠٠٢ الى طرابلس حيث خرج فلفل ، الذي صارت اليه الأمور ، واستقبلها . ومنذ البداية اتضح عدم الانسجام بين الزناتين الذي كان يطمح في السيادة وبين القائد الفاطمي الذي كانت له الولاية الشرعية من قبل الخليفة ، والذي كان قد فقد السيطرة على رجاله المضطربين .

ورغم هذا الاختلاف تم الاتفاق على القيام بعمل مشترك ضد باديس . وفي سنة ١٠٠٣/٣٩٣ خرج يحيى بن علي على رأس قواته المصرية ، وفلفل بن سعيد بأعوانه من زناته وزويلة ، وفتوح بن علي بحامية طرابلس ، واتجهوا نحو قابس وضربوا عليها الحصار في منتصف شعبان/١٩ يونية . ولما لم يكن الوفاق تاما بين الأحلاف الثلاثة فقد فشلت مجهوداتهم ضد المدينة التونسية . وأخيرا رأى يحيى ، الذي أفلت زمام الأمر من يديه ، العودة الى طرابلس . وفي طرابلس عجز القائد الفاطمي من جديد عن مواجهة الموقف : من اختلال عسكره ، وتهجم فلفل ورجاله على جيشه ، فقرر الانسحاب بعد أن نهبت أمتعته وخيله . وهكذا وقعت طرابلس فريسة

- (١) ابن عذارى، البيان المغرب، ج ١ ص ٣٦١ .
- (٢) ابن عذارى، البيان المغرب، ج ١ ص ٣٦٨ .
- (٣) نفس المصدر، ج ١ ص ٣٦٨ .
- (٤) ابن الأثير، ج ١ ص ٧٤ .

سهلة بين يدي الثائر الزناتي الذي أعطى لحركته نوعا من الشرعية بعد أن تدخلت جيوش الخليفة الفاطمي الى جانبه .

واكتفى الحاكم بأن صب جام غضبه على قائده الفاشل ، الذي أسخط تابعيه القوى في افريقية ، وأضاع طرابلس فأعطاهما لقمة سائغة لزناته أعداء القواطم وحلفاء الأمويين في المغرب ، حتى كاد يقتله . ولم يتخذ الحاكم اجراءات أخرى ضد الأمير الزيري الذي لم يرض له بأن يسترجع المدينة التي وهبها والده (العزير) بعد باديس (بلكين) ، ولا ضد الثائر الزناتي الذي استخدمه كمغلب القط واستولى عليها .

وظل فلفل في طرابلس حتى وفاته سنة ١٠٠٩/٤٠٠ - ١٠١٠ بعد أن عمل على جعل المدينة وأعمالها مملكة زناتية صغيرة يورثها لأفراد أسرته : فاتخذ قصرا للامارة، ودون الدواوين ، وقوى من شأنه حتى خلقه أخوه ورثوا الذي بايعته زناته بعده . وساعدت الظروف فلفل على الاستبداد بطرابلس طوال فترة السبع سنوات هذه . ففي السنة التالية لاستيلائه على عاصمة ليبيا الغربية (أي في ٣٩٥/١٠٠٥) حدثت مجاعة كبرى بافريقية صاحبها طاعون فأتت نشر الخراب والدمار ، وشل حركة البلاد بشكل يصفه الكتاب وصفا رائعا . والى جانب هذه المأساة التي أحزنت البلاد بدأ النزاع يشتد بين باديس وبين عمه في مغرب المملكة . ولا شك أن هذا الخطر الجديد أثار اهتمام باديس أكثر من خطر الثائر الزناتي الذي قام باسم الخليفة الفاطمي . ولكن بقاء فلفل في طرابلس كان خطرا على كيان باديس . فبعد أن خذله الفاطميون في مصر بدأ يتطلع الى تأييد الأمويين في الأندلس فراسلهم . ثم بدأ شأنه يرتفع شيئا فشيئا في بلاط القيروان نفسه حتى أصبح ملاذ الساخطين على باديس أو الفارين من رجاله . فعندما توفي محمد بن أبي العرب عامل افريقية ، هرب أبناؤه سنة ٣٩٩/١٠٠٩ من المنصورية ، مقر باديس ، ويمسوا وجوههم نحو فلفل بطرابلس . ولكن باديس حذر والى قابس في الوقت المناسب ، فقبض عليهم

- (١) ابن الأثير، ج ٩ ص ٧٣ ؛ ابن عذارى ، البيان المغرب، ج ١ ص ٣٦٩ .
- (٢) ابن الأثير، ج ٩ ص ٧٤ ؛ ابن عذارى، البيان المغرب، ج ١ ص ٣٧٢ .
- (٣) ابن عذارى، البيان المغرب، ج ١ ص ٣٦٩ ؛ ابن الأثير، ج ٩ ص ٧٧ .
- (٤) انظر احمد النائب، المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب، ص ٩٦ .

وقتل اثنين منهم بينما عاد الثالث وهو القاسم الذي كان قد خلف والده في منصب عامل افريقية ، الى باديس فعفا عنه^١ . وثقل باديس واقفا موقف المترقب ازاء بني خزرون بطرابلس ، ولم يتحرك الا بعد أن بلغه نبأ وفاة فلعل سنة ٤٠٠/١٠١٠ عندئذ سار على رأس قوات كبيرة ووصل الى ظاهر المدينة في أوائل شعبان/أواخر مارس فخرج منها وروا أخو فلعل دون قتال . وتقدم أهل المدينة مرحبين بأمرهم القديم وضربوا خيام الديباج والسرادات الحافلة اعلانا عن سرورهم بمقدمه وحفاوة بوصوله . ولكن الأحوال الجوية لم تحقق لهم ما أرادوا فهبت الرياح ومزقت أو اقتلعت ما أقاموا ، وعندئذ أدخلوه الى قصر الامارة الذي كان اتخذته فلعل^٢ .

وخضع وروا بن سعيد ، الذي لم يكن له همة أخيه ونشاطه ، للأمر الواقع فأرسل الى باديس يطلب الأمان له ولمن معه ، فأجابه باديس وعرضهم عن طرابلس وأعمالها فأقطعهم نفزاوة وقسطيلة من بلاد الجريد^٣ . هذا ولم يلبث بنو خزرون أن انشقوا على أنفسهم اذ يذكر ابن عذارى أن خزرون بن سعيد اختلف مع أخيه وروا فقصده الى باديس سنة ٤٠٢/١٠١١ - ١٠١٣ فأكرمه ومن معه من فرسان زناته ، ثم أعطاه احدى المدن فخرج اليها بالبنود والبطول^٤ . وعلى كل حال عادت طرابلس الى افريقية ودولة بنى زيرى بعد أن حققت استقلالها تحت امرة الزناتيين طوال سبع سنوات .

وكان لأحداث طرابلس هذه صداها - كما هو المعتاد - في الجزء الشرقى من ليبيا أى في ولاية برقة التى اقتطعت من مصر فى سنة ٣٩٦/١٠٠٦ على يدى رجل يدعى الوليد بن هشام ويعرف بابى ركوة . ورغم ان الكتاب لا يربطون بين ثورة طرابلس وثورة برقة، فهناك دلائل تبين وجود علاقة بينهما أو أوجه شبه على الأقل : فعلى الثورة فى الحالتين هم زناتة وهؤلاء كانوا حلفاء بنى أمية الأندلسيين فى المغرب . ولكن حركة برقة تختلف عن حركة طرابلس بأنها اتخذت شكل دعوة أموية بدأت بالصورة التقليدية التى بدأت بها الدعوة الفاطمية فى أرض كتامة ، ونجحت فى

(١) ابن عذارى، البيان المغرب، ج ١ ص ٣٧١ .

(٢) ابن عذارى فى البيان المغرب، ج ١ ص ٣٧٢ . عن قصر فلعل أنظر الطاهر احمد الزاوى، الفتح العربى فى ليبيا، هامش ١ ص ١٨٥ .

(٣) ابن الاثير، ج ٩ ص ٧٤ ؛ ابن عذارى، البيان المغرب، ج ١ ص ٣٧٢ .

(٤) ابن عذارى، البيان المغرب، ج ١ ص ٣٧٣ .

استمالة زناتة التى عاضدتها . وصاحب الدعوة هو الوليد بن هشام من أقرباء المؤيد هشام بن الحكم الأموى ، وكان قد فر من قرطبة عندما طلبه المنصور بن أبى عامر^١ . وبعد رحلة فى الشرق زار خلالها مصر والحجاز واليمن استقر فى برقة حيث اشتغل بتعليم الصبيان ، كما فعل أبو عبد الله الشيعى من قبل فى أرض كتامة . وسلك الرجل مسلك المصلح الاجتماعى فأظهر العدل وأمر بالمعروف وأصلح بين قبائل المنطقة المتخاصمة من عرب بنى قره وبربر زناته ، ثم انتهاز فرصة استيلاء زناته على طرابلس وفترة المجاعة فأعلن نسبة الأموى . والظاهر أنه ادعى انه الأموى المنتظر الذى يعيد مجد بنى أمية فى الشرق ، وتمكن من اقناع أهل المنطقة بأنه مقدر له ملك مصر وازالة حكم الشيعة منها .

وكان من الطبيعى أن تقبل قبائل البربر من لواته وزناته هذه الدعوة فأجابوه ونصبوه اماما عليهم . وعندما أحس باشتداد أمره جمع جموعه وهاجم مدينة برقة، وتمكن من دخولها فى رجب من عام ٣٩٥/ابريل ١٠٠٥ . ورد الحاكم على ذلك بأنه أرسل جيشا ضده ، ولكن النتيجة لم تكن باحسن منها فى طرابلس ، اذ انهزم الجيش الفاطمى الذى أنهكه الجهد والعطش ، وعاد الى مصر بعد أن ترك قائده « ينال » قتيلا فى أرض المعركة . وقوى هذا النصر من شأن الثائر فاستفحل أمره وأصبح خطرا يهدد مصر نفسها ، اذ بدأ يكتاب بعض كبار قواد القاهرة مثل الحسين بن جوهر قائد القواد - كما يروى ابن الأثير . وهنا رأى الحاكم أن يستعمل معه الحيلة بعد أن فشلت ضده القوة . فتقول رواية ابن عذارى التى تؤيدها رواية ابن الأثير بشكل غير مباشر ، أنه أمر بعض كبار رجال الدولة بمكاتبة الوليد واغرائه بدخول مصر ، ووعدته بالمساعدة أو الانضمام الى جانبه .

ووقع الثائر فى الشرك الذى نصب له ، فدخل مصر وترددت سراياه الى الصعيد حيث فاجأته القوات المصرية ومن معه من البربر وألحقت بهم هزيمة منكرة، ففر نحو النوبة ، وهناك أخذ أسيرا وحمل الى القاهرة مشهرا على جمل ، ثم قتل فى منتصف شوال سنة ٣٩٧/٥ يوليو ١٠٠٧ .

(١) ابن الاثير، ج ٩ ص ٨٤ .

(٢) ابن عذارى، البيان المغرب، ج ١ ص ٣٧٠ - ٣٧١ ؛ ابن الاثير، ج ١ ص ٨٢ ، ٨٤، ٨٣ .

وهكذا قضى على ثورة زناته في برقة قبل انقضاء ثورتها في طرابلس بسبب تهور صاحبها الذي لم يعرف حدود قدرته ، وأراد أن يحقق في بضعة سنوات ما حققه كتامة والفاطيون بعد ثمانين عاما من الدعاية الواسعة والكفاح المرير .

انتهت الأزمة السياسية اذن في ليبيا سنة ١٠١٠/٤٠٠ وعادت الاوضاع الى ما كانت عليه أيام المعز لدين الله ويوسف بنكين بعودة طرابلس الى بنى زيري بعد أن استقل بها بنو خزرون ، وعودة برقة الى أعمال مصر بعد أن جربت حظها لا في الاستقلال فقط بل وفي فتح مصر أيضا . ولكن العلاقة كانت قد فترت من غير شك بين باديس وبين الحاكم بعدما قام به الأخير في طرابلس وقابس . وعلى ذلك عمل الفاطمي على اصلاح ما أفسده ، فأرسل — بطريق البحر — الى باديس في سنة ١٠١٢/٤٠٣ سفارة تحمل هدية قيمة وسجلات باضافة برقة وأعمالها الى أملاكه . وبذلك حقق الحاكم هدفين معا : استرضاء الأمير باديس ، والتخلص من الولاية المضطربة التي أزعجته بالأمس والقاء مسئولية ضبطها على عاتق الصنهاجي .

والحقيقة أنه رغم أن ليبيا أصبحت جميعا خاضعة لأمر تونس إلا أنه كان من الصعب عليه أن يقر النظام فيها . فبعد التجاء خزرون بن سعيد الى باديس سنة ١٠١٢/٤٠٣ اثر اختلافه مع أخيه وروا^٢ ، اغضب هذا الأخير لذلك فسار الى طرابلس بقصد استرجاعها ، وضرب عليها الحصار^٣ . ورأى باديس أن يضرب أعداءه الزناتيين بعضهم ببعض فمهد الى خزرون بحرب أخيه فسار الى طرابلس سنة ١٠١٣/٤٠٣ لمنع وروا من حصارها . والتقى الزناتيون المتنافسون فيما بين قابس وطرابلس ولكنهم اتفقوا بدلا من أن يتحاربوا فدخل أصحاب خزرون في طاعة وروا . وعندما طلب باديس من خزرون أن يفسر موقفه المريب لحق هو الآخر بأخيه في السنة التالية . ورغم أن المصادر لا توضح الأحداث التي وقعت أثناء ذلك وبعده إلا أنه يتبين أن زفاته وبنى خزرون استقروا من جديد في منطقة طرابلس ، وأنهم فرضوا سلطانهم على المدينة حتى أصبحت علاقتها بالقيروان علاقة اسمية فقط ، وأن الرئاسة ظلت

(١) ابن عذاري، البيان المغرب، ج ١ ص ٣٧٤ .

(٢) انظر ما قبل، ص ١٠٤ .

(٣) ابن الأثير، ج ٩ ص ٧٤ .

(٤) ابن الأثير، ج ٩ ص ٧٤ .

لوروا الى أن مات سنة ١٠١٦/٤٠٦ .

والظاهر أن باديس أراد انتهاز فرصة وفاة وروا لاستعادة طرابلس كما حدث سنة ١٠١٠/٤٠٠ عقب وفاة فلفل، ولكن المنية عاجلته قبل أن يتحقق له ذلك . فيروى ابن خلكان أنه في سنة ١٠١٦/٤٠٦ قصد باديس طرابلس ولم يزل على قرب منها عازما على قتالها ، وبلغ من شدة حنقه على المدينة المعنة في العصيان أنه أراد أن ينزل بها عقوبة أشبه بتلك التي أنزلها الحكم بن هشام بربض قرطبة سنة ٨١٧/٢٠٢ : « فحلف أن لا يرحل عنها حتى يعيدها فدنا للزراعة » . وما يؤسف له أن ابن خلكان الذي ينقل هذه الرواية عن كتاب « الدول المنقطعة » — الذي لم يصل الينا — رأى الاختصار ، فقال ان رغبة باديس في الانتقام من طرابلس كانت « لسبب اقتضى ذلك تركت شرحه لطوله » . ولكنه يستمر بعد ذلك فيقول انه عندما علم أهل البلد بهذا التهديد الخطير ، اجتمعوا عند المؤدب محرزولي المدينة وعابدها، وطلبوا منه الدعاء الى الله أن يزيل هذا البأس . ورفع الرجل الصالح يديه الى السماء وقال : « يا رب باديس ، اكفنا باديس . فهلك في ليلته بالذبحة »^٤ .

وإذا ما علمنا أن باديس توفي بالمسيلة بالمغرب الاوسط عقب انتصاره على عمه حماد ، خامرنا الشك في صحة هذه الرواية . ولكن يمكن التوفيق بين مضمونها الذي يعبر عن طبيعة العلاقة بين طرابلس وأمير القيروان ، بأن نبأ وفاة وروا وصل الى باديس وهو بالمسلية ، وأنه قرر استعادة عاصمة ليبيا الغريبة فأرسل اليها أحد قواده وأوصاه بالحزم والشدة ازاء أهل المدينة الذين انزعجوا للتهديد الخطير ، وأن القوة الصنهاجية انسحبت من أمام طرابلس عندما بلغها نبأ وفاة باديس .

ولم يمنع هذا من انقسام بنى خزرون اذ دبت بينهم الفرقة فقامت المنافسة بين خليفة ابن وروا وبين عمه خزرون بن سعيد . ولكن كان التفوق لخليفة الذي استطاع اكتساب معظم زناته الى جانبه . وازاء تفوق خليفة يس خزرون من منافسة ابن أخيه فقرر السير الى مصر وبصحبه أبناءه الثلاثة وهم سعيد وخليفة والمنتصر^٥ .

(١) ابن عذاري، البيان المغرب ج ١ ص ٣٨٣ ؛ وانظر احمد النائب، المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب، ص ٩٧ — ٩٨ .

(٢) ابن خلكان، ترجمة باديس بن المنصور، ج ١ ص ٢٤١ .

(٣) انظر احمد النائب، المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب، ص ٩٨ .

هذا عن طرابلس في أواخر أيام باديس أما عن برقة فلم تكن بأحسن حالا فلم يستطع أن يضبطها الأخرى . إذ تدل الدلائل على أن الحكومة الصنهاجية لم تكن مسيطرة عليها تماما، وأن هبة القيروان لم تكن أكيدة هناك. ففي سنة ١٠١٤/٤٠٥ - ١٠١٥ لم تتردد جماعات عرب برقة في مهاجمة مركب أميرية كان باديس قد سيرها نحو مصر وهي تحمل هدايا منه ومن أخته أم ملال إلى الخليفة الحاكم وإلى أخته . واستولى المهاجمون الجريئون على كل الأمتعة ولأعلاق النفسية : من الأفراس الأصلية والسروج المزخرفة والخز السوسى المذهب .

وفي هذه الظروف ظلت العلاقة فاترة مائعة بين القاهرة والقيروان ، رغم محاولات الإصلاح ، كما ظلت الأحوال مضطربة في ولايتي ليبيا جميعا منذ أن تدخل الحاكم في أمر طرابلس سنة ٣٨٩/٩٩٩ إلى وفاة باديس سنة ٤٠٦/١٠١٦ .

خلف باديس ابنه المعز الذى يعتبر ملكة نقطة التحول الحاسمة في الموضوع : وذلك أن الصراع السياسى بين الخليفة الفاطمى وبين تابعه الصنهاجى ، هذا الصراع الذى اتخذ على عهد باديس صفة العداء المكشوف واستعمال العنف والقوة في ليبيا ، اتخذ على عهد المعز شكلا مذهبيا أعمق وأخطر . وذلك أن شعب افريقية اشترك مع أميره وقام الجميع يعارضون المذهب الاسماعيلى الفاطمى ، معارضة صامتة أول الامر ثم علنية بعد ذلك - كل هذا مع الاحتفاظ بالشكليات - وانتهى الامر بالانفصال التام واعلان السنة والمناداة بخلافة بغداد . فمجرد اعتلاء المعز لعرش بنى زيرى قامت حركات شعبية كبيرة في القيروان ضد الشيعة ، راح ضحيتها كثير من هؤلاء في القيروان وفي المهديّة^٢ . هذه الحركات تبين أنه رغم أن التشيع كان المذهب الرسمى إلا أن جمهرة الناس ظلت متمسكة بمذهب مالك، وأنه بعد رحيل الفاطميين لم يعد للتشيع سلطان حقيقى في البلاد . ففي سنة ٤٠٧/١٠١٦ - ١٠١٧ أى حينما وصل تقليد الحاكم للمعز بالولاية وتلقيه بشرف الدولة ، كان الشيعة مستترين بأحد أحياء القيروان المعروف بدرب المعلى^٣ . والحقيقة أن الانشقاق المذهبى والتمسك بالسنة ظهر بوضوح قبل ذلك وفي بلاط الامراء أنفسهم . إذ يسجل ابن عذارى ، أنه رفع الى المنصور سنة ٣٨١/٩٩١ أن عبدا من عبيده قذف

(١) ابن عذارى، البيان المغرب، ج ١ ص ٣٧٥ .

(٢) ابن الاثير، ج ٩ ص ١٢٣ .

(٣) ابن عذارى، البيان المغرب، ج ١ ص ٣٨٧ - ٣٨٨ .

بعض الصحابة فأمر المنصور بقتل عبده وصلب جثته ، وأنه أعلن ذلك على الملأ في أحياء القيروان وأسواقها^١ . وفي أواخر أيام باديس عندما أراد أن يقتطع من عمه حماد بعض أعماله ويعهد بها الى ولى عهده المعز بن باديس ، وذلك بموافقة الحاكم ، يقول ابن خلدون ان حمادا لم يتردد في خلع طاعة ابن أخيه فقط بل خلع طاعة الفاطمى أيضا ، فأعلن ولاءه المباشر لخلافة بغداد وقتل الرافضة وأظهر السنة ورضى عن الشيخين أبى بكر وعمر^٢ .

كل هذا يدل على أن السنة كانت قد عادت فعلا الى المغرب عند ولاية المعز ، وبدأت المالكية تستعيد سلطانها المفقود . وعرف الشيعة ذلك منذ البداية، وقدروا خطورة موقفهم فقررت جماعة منهم مغادرة البلاد . ففي سنة ٤٠٩/١٠١٨ - ١٠١٩ خرجت طائفة منهم مهاجرة الى صقلية عن طريق المهديّة ، وخرجت معهم قوة من الخيل لحراستهم ، ولكن أهل البلاد فتكوا بهم في الطريق واستباحوا حريمهم^٣ . ولهم تهم القاهرة برد فعل ضد هذا التحرش ، وظل الحاكم والمعز محافظين على الشكليات فالحاكم يرسل الهدايا وعلامات التشريف دون أن يذكر ما كان من خصمه الى الشيعة من القتل والاحراق^٤ ، والمعز يبعث بأخبار المغرب وانهايار الأمويين أعداء الفاطميين بالأندلس^٥ . وبينما نرى الكتاب يسهبون فيما قامت به افريقية من التحرر المذهبى من الشيعة ، لا نجد ذكرا لليبيا في هذا المجال رغم ما يقول التيجانى من أن الفقيه أبى الحسن على بن محمد بن المنمر الطرابلسى كان أول من أظهر السنة بمدينة طرابلس ، وأنه أثناء مقاتل الشيعة في افريقية (سنة ٤٠٧هـ) قام العامة ضدهم في طرابلس ، وقتلوهم في الواقعة المعروفة بوقعة المشاركة وذلك بتحريض الفقيه أبى الحسن وعلى يديه . ويتابع التيجانى روايته فيقول ان أبا الحسن كان أول من قطع من الأذان «حى على خير العمل» ، وأذن في ذلك اليوم اذان أهل السنة بنفسه^٦ . وهذا الجزء الأخير وما يتبعه من سياق الحديث والأخطاء الواضحة

(١) ابن عذارى، البيان المغرب، ج ١ ص ٣٥١ - ٣٥٢ .

(٢) انظر فيما قبل هامش ٤٨ ص ٩٧ .

(٣) انظر ابن خلدون، العبر، ج ٦ ص ١٧١ ؛ وانظر

G. Margais, La Berbérie Musulmane, p. 164.

(٤) ابن الاثير، ج ٩ ص ١٠٦ .

(٥) ابن عذارى، البيان المغرب، ج ١ ص ٣٨٩ .

(٦) التيجانى، الرحلة، ص ١٩٠ - ١٩١ .

في التأريخ والتوفيت ، تدل على أن التيجاني خلط بين الأحداث التي وقعت في بداية عهد المعز بن باديس وتلك التي حدثت بعد أن قطعت الخطبة الفاطمية في إفريقية . والحقيقة أنه خلط بين الفقيه أبي الحسن بن المنصور المتوفى سنة ٤٣٣هـ / ١٠٤٠م وبين الفقيه أبي الحسن بن المنتصر الذي كان في طرابلس سنة ٤٤٦هـ / ١٠٥٤م وصول العرب إليها .

وعلى عكس ما يفهم من رواية التيجاني نرى أن زناته سببت المتاعب من جديد لأمير القيروان في طرابلس ، وزاد الأمر عما كان عليه إلى سنة ٤٠٦هـ / ١٠١٥م - ١٠١٦م فانتقل ميدان الصراع من البر إلى البحر . أما السبب المباشر لاستئناف الصراع ، فهو أن المعز كان ساخطا على وزيره أبي عبد الله محمد بن الحسن لأشياء منها استبداده وطمعه في الأموال . ثم أتت الأنباء بأن أخا الوزير وهو عبد الله بن الحسن الذي كان واليا لطرابلس يمالئ زناته وزعماءهم بنى خزرون المجاورين له والمناوئين للدولة وترتب على ذلك أن تخلص المعز من وزيره الخائن فقتله سنة ٤١٣هـ / ١٠٢٣م - ١٠٢٣م . وعندما وصل هذا النبأ إلى طرابلس ثار عبد الله لقتل أخيه ، وتحالف مع زناته سرا وأدخلهم طرابلس وأعلن العصيان على المعز ، وقتك هو وحلفاؤه من بنى خزرون بالحامية الصنهاجية في المدينة . وبذلك عادت طرابلس إمارة زناتية من جديد . وبدأ خليفة بن وروا الذي تخلص من عبد الله بن الحسن ، في إنشاء أسطول لطرابلس ، فبنى عددا كبيرا من المراكب . وعندما انضم أحد حلفائهم وهو فتوح بن القائد إلى جانب المعز الذي ولاه مدينة نقطة من عمل قسطنطينية ، خرجت مراكب خليفة من طرابلس لمطاردة سنة ٤١٤هـ / ١٠٢٣م . وبذلك أصبحت طرابلس قوة بحرية يخشى بأسها ، وكان على المعز أن يتخذ الاستعدادات البحرية إلى جانب قواته البرية إذا ما أراد استرجاعها . وفعلا خرج المعز في نفس السنة من القيروان إلى سوسة ، ومنها سار إلى المهديّة وبدأ في حشد حملة بحرية برية . فأمر بجمع البحريين والعمل في إصلاح القطائع واعداد دار الصناعة لإنشاء

(١) انظر أحمد النائب، المنهل العذب، ص ١٠١ .

(٢) نفس المصدر، ص ١٥ .

(٣) ابن الأثير، ج ٩ ص ١٣٦ .

(٤) من الجائز أن يكون فتوح هذا ابن القائد بن حماد وأن يكون قد اتخذ جانب زناته ضد المعز قريبا في أول الأمر نتيجة للخلاف بين الحمادين في أشير وبين بنى عمومهم في القيروان . فابن الأثير (ج ٩ ص ١٤٧) يذكر عند وفاة حماد وولاية ابنه القائد أن حمادا كان قد اصطاح مع المعز كما أن ابنائه اذعنوا له بالطاعة .

العدد والآلات الحربية اللازمة . وتم الاستعداد حقيقة في وقت قصير . أما الحملة البرية فانه أمر من تخلف من عسكره باللاحاق به في المهديّة حتى يسير الجيش إلى جانب الأسطول على طول الطريق الساحلي من المهديّة إلى صفاقس ومنها إلى قابس ثم إلى طرابلس . ولكنه عاد وغير خطته فرجع إلى القيروان لكي يستوفي رجاله عددهم وما يحتاجون إليه كما يقول ابن عذارى . ولكن ما هو أقرب إلى الصحة هو أن زناته وبنى خزرون عندما ثاروا في منطقة اقطاعهم بقسطنطينية ونزاعوا وافسدوا البلاد، جعلوا المعز يغير من خطته فسير اليهم قواته التي قتلت بهم سنة ٤١٥هـ / ١٠٢٤م حسب رواية ابن الأثير .

هذا الحدث ، وهو تكوين بنى خزرون لأسطول بحري في طرابلس ، له أهمية كبرى في تاريخ الإمارة الصنهاجية وتحديد مصيرها ، فهو الذي وجه اهتمامها بصفة جدية نحو البحر ، ونحو احياء مدينة المهديّة التي فقدت أهميتها كقاعدة بحرية بعد رحيل الفاطميين . وسار النشاط البحري بسرعة غريبة ، فبعد سنتين فقط استطاع المعز أن يجهز أسطولا كبيرا بلغت عدته ٤٠٠ قطعة ، حسب قول ابن الأثير ، وسيره إلى صقلية لملاقاة القوات البيزنطية التي أرسلها الامبراطور باسيل الثاني ونزلت في أملاك المسلمين بجنوب إيطاليا وفي الجزيرة . ولكن الحملة كانت سيئة الحظ اذ ثارت بها ريح عاصفة ونوء عظيم ففرق معظمها غير بعيد من الساحل الإفريقي . وهكذا لم يكن من الغريب أن تكتفى الإمارة الصنهاجية ، بعد غزوة الهالبيين بعد ٢٥ سنة تقريبا بالمناطق الساحلية وان تصبح دولة بحرية أولا وقبل كل شيء .

أما دخول العرب من مصر إلى المغرب ، وما ترتب عليه من نتائج بعيدة المدى في كل النواحي السياسية والاقتصادية والبشرية ، فانه كان رد الفعل المباشر لاعتراف المعز بن باديس بالعباسيين ، وقطع علاقته بالفاطميين والقضاء على مذهبهم في إفريقية، ولعنهم من أعلى المنابر . وكان ذلك نتيجة طبيعية لسياسة الصنهاجين الذين أرادوا أن يوطدوا ملكهم على أسس متينة عن طريق توطيد علاقتهم بشعبهم الذي تمسك بسننهم، ولم يقبل «الزندقة» الشيعية منذ البداية . ولقد عبر أحداث القيروان عن

(١) البيان المغرب، ج ١ ص ٣٩٠ - ٣٩١ .

(٢) ابن الأثير، ج ٩ ص ١٤١ .

(٣) ابن الأثير، ج ٩ ص ١٤٥ .

ذلك ، أيام عيد الله المهدى ، في بيتين من الشعر تلطفوا في وصولهما اليه خفية ، وهما :

الجور قد رضىنا لا الكفر والحماسة
يا مدعى القيوب من كاتب البطاقة ؟

وانتهى الامر الى أن أضرب القيروانيون عن صلاة الجمعة في المساجد « فرارا من دعوتهم ، وتبديما لاقامتها بأسمائهم »^٢ . وهكذا اضطر المعز الى حسم الموقف ، وعدم التمسك بالشكليات التي لا طائل وراءها ، ولكنه فعل ذلك بكثير من التردد والحذر ، خلال فترة استمرت حوالي ثمانى سنوات . ففي سنة ٤٣٣/١٠٤١ بدأ الاتصال بالخلافة العباسية ، وأظهر رغبته في الدعاء لها . ورد عليه ديوان الخليفة القائم بالموافقة ، وبعث اليه بالتقليد والخلع والأعلام عن طريق القسطنطينية^٣ . ولكن ذلك لم يتم بصفة قاطعة الا سنة ٤٤٠/١٠٤٨ ، اذ قطعت الدعوة فعلا للفاطمي وأحرقت بنوده ، ودعى للعباسيين . ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل لعن بنو عبيد من أعلى المنابر ، ثم محى ذكرهم من السكة في السنة التالية (٤٤١هـ) ، ومنع التعامل بالنقود التي تحمل أسماءهم رغم ما أدى اليه ذلك اضطراب الأسواق^٤ .

وفي هذه الاثناء حاول الخليفة المستنصر أن يعالج الامر بالسياسة والمداراة كما فعل أسلافه ، فكتب الى المعز يرغبه ويهدده ، ويقول له : « هلا اقتنيت آثار آبائك في الطاعة والولاء » . ورد الصنهاجى يؤكد حق أسرته في الاستقلال ، كما فعل جده المنصور عندما خطب في أعيان القيروان بأشير ، فقال في جوابه : « ان آبائى وأجدادى كانوا ملوك المغرب قبل أن تملكه أسلافك ، ولهم عليهم من الخدم أعظم من التقديم ، ولو آخروهم لتقدموا بأسيا فهم » واستمر على قطع الخطبة^٥ . وفي سنة ٤٤٣/

(١) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ١ ص ٢٢١ .

(٢) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ١ ص ٤٠٠ .

(٣) نفس المصدر ، ج ٣٩٧ . أما ابن الاثير (ج ٩ ص ٢١٧) فإنه يضع ذلك في سنة ٤٣٥/١٠٤٣ أى بتأخير سنتين ، ويضيف الى ذلك قطع الخطبة للعلويين واحراق اعلامهم . ولكن هذا غير صحيح اذ المعروف ان ذلك حدث سنة ٤٤٠/١٠٤٨ حسب ما يفصله ابن عذارى (ج ١ ص ٣٩٩) ، وما يذكره ابن الاثير نفسه فيما بعد (ج ٩ ص ٢٣٥) . ولهذا السبب لم يستطع ابن خلكان تفسير هذا التضارب فذكر أن قطع الخطبة تم سنة ٤٤٣ ثم أضاف الرواية التي تقول بقطعها سنة ٤٣٥ ، وعلق قائلا والله اعلم (ترجمة المستنصر) .

(٤) ابن عذارى البيان المغرب ، ج ١ ص ٤٠١ - ٤٠٣ .

(٥) ابن خلكان (ترجمة المستنصر) ، ج ٤ ص ٢١ .

١٠٥١ تقرر اتخاذ اللباس الأسود ، لون العباسيين شعارا للصنهاجيين . فأخرجت الثياب البيض من فندق الكتان ، وصبغت بأحلك سواد ، وقطعت أثوابا ، ووزعت على الفقهاء والقضاة وخطيب القيروان وجميع المؤذنين^١ .

وكان لذلك صدهاء في ليبيا جميعا . ففى طرابلس قام الفقيه أبو الحسن بن المنتصر بتحريض العامة ضد الشيعة واشترك معهم في قتلهم ، ثم قطع من الأذان « حى على خير العمل » ، وأذن أذان أهل السنة بنفسه كما ذكرناه من قول التيجانى^٢ . وفي سنة ٤٤٣/١٠٥١ وصلت الى القيروان رسالة من جبارة بن مختار أمير برقة يعلن ولاءه وطاعته للمعز ، وتفيد أنه وأهل برقة أحرقوا المنابر التي كان يخطب عليها للفاطميين ، وأنهم أحرقوا راياتهم وتبرأوا منهم ، كما دعوا لخليفة بغداد القائم بأمر الله^٣ .

عندئذ تحطم كل أمل في ايجاد تسوية مناسبة ، فقد مضى الزمن الذى كان يوحى فيه لمعز بقتل الشيعة ويرسل بهداياه وآيات خضوعه الى القاهرة ، فيرد الحاكم بسجلات التشريف ولا يذكر ما كان من تابعه الى الشيعة من القتل والاحراق . ولم يقف الامر عند خلق الطاعة بل تعداه الى لعن الفاطميين ، لا على منابر القيروان فقط ، بل على منابر برقة المتاخمة والتي كانت عملا من أعمال مصر . وكان اليازورى وزير المستنصر قد فكر في اتخاذ اجراء يرد الى الثوار الطائشين في ليبيا وتونس صوابهم ، وكان انتقامه رائعا ، اذ نصح الخليفة الفاطمى بأن يطلق على المغرب جحافل العرب الموجودين في صحراء مصر الشرقية من قبائل هلال وسليم . وكان هؤلاء قد أرغموا على المسير الى صحراء مصر بعد أن قاموا - منذ وقت غير بعيد - فيما بين الشام والحجاز ، بأعمال خرق كل ما تعارف عليه الناس ، وانتهكت كل ما هو مقدس ، مثلهم في ذلك مثل القرامطة . فتسجل الحوليات التاريخية أن بنى سليم خرجوا سنة ٣٥٥/٩٦٦ على الحجاج السائرين من مصر والشام فأخذوهم ولم يسلم الا القليل^٤ . أما بنو هلال فاتهم هاجموا الحجاج سنة ٣٦٥/٩٨٦ وقتلوا منهم خلقا

(١) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ١ ص ٤٠٥ .

(٢) انظر فيما سبق ، ص ١٠٩ هامش ٦ .

(٣) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ١ ص ٤١٦ .

(٤) ابن الاثير ، ج ٨ ص ٢٢٦ . وانظر ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٣ ص ١١ .

كثيرا حتى بطل الحاج في ذلك العام^١. ووافق المستنصر على الفكرة التي تحقق له ضرب أعدائه بأعدائه ، وسهل لهم عبور النيل ، وقلدهم المغرب وكل ما يفتحون وزودهم ببعض المال والسلاح .

وخرجت هلال وسليم بفروعها من زغبة ورياح والأبج وعدى ، ولم يأمرهم الخليفة الفاطمي بشيء «لعلمه أنهم لا يحتاجون لوصية»^٢ . فكان هؤلاء العرب الذين لم يعهدوا نعمة ، ولا طالعوا حاضرة ، كلما اتهموا الى قرية تنادوا : « هذه القيروان ، ونهبوها »^٣ . وبهذا الشكل استقروا في برقة التي وجدوها مفتوحة أمامهم بعدما تحطمت زناته في المنطقة خلال الصراع المستمر ضد صنهاجة وضد الفاطميين^٤ . ثم وصلوا مسيرهم عبر ليبيا فوصلوا الى طرابلس سنة ١٠٥٤/٤٤٦ - ١٠٥٥ وملكوا المدينة . وواصلت رياح منهم والأبج وبنو عدى المسير الى افريقية ، وعاثوا فسادا في نواحيها ، ولم يستطع المعز وصنهاجة الوقوف أمامهم أوردتهم . واتتهى أمر المعز الى أن انتقل الى المهديّة في سنة ١٠٥٧/٤٤٩ . واستمر العرب في تقديمهم نحو الغرب ، وبدأوا متعاونين مع القرع الغربي من صنهاجة وهم بنو حماد في الصراع ضد زناته بالمغرب الأوسط ، ذلك الصراع الذي سجلته ملحمة بنى هلال الشعبية الشهيرة .

النتيجة الخاتمة

ترتب على تخريب العرب المنظم أن حلت الفوضى السياسية والاقتصادية بعد أن لجأ بنو زيري الى الاقاليم الساحلية ، وخربت البلاد الداخلية ، مما استند عليه ابن خلدون في نظريته التي تقول ان العرب - وهو يقصد البدو منهم - لا يتذوقون الحضارة ولا يفهمون المدنية ولا يصلحون لتكوين دولة منظمة . وأدى انفكاش الدولة الصنهاجية في المناطق الساحلية الى اهتمامها بالامور البحرية فوجهت أنظارها نحو صقلية وجنوب إيطاليا . ولكن شاءت الأقدار أن يغزوا النورمانديون الجزيرة

على المسلمين ، ولم يستطع بنو زيري الوقوف أمامهم فقبلوا وصايتهم . واستلزم الأمر تدخل المرابطين من صنهاجة الصحراء بحريا ضد النورماندين في صقلية . ولكن رد الفعل كان وبالا على الحسن بن علي ، آخر بنى زيري ، اذ انتهى الصراع بأن احتل النورمانديون كل السواحل الافريقية من بونة الى المهديّة الى طرابلس . واستتبع ذلك تدخل الموحدين المصامدة ، فأثنى عبد المؤمن بن علي بجيشه المنظم وطرد النصارى وحمل عرب هلال وسليم الى المغرب الأقصى وضم افريقية حتى طرابلس وبرقة الى أملاكه . وبذلك توحد المغرب جميعا واستقل عن المشرق استقلالاً تاماً في القرن السادس الهجري .

وهكذا كان لليبيا دورها الذي لا ينكر في تلك الأحداث الجسام التي قررت مصيرها ومصير المغرب لزمان بعيد . فموقعها المتوسط بين افريقية ومصر هو الذي ألقى عليها موقفها ازاء كل من حكومتى القيروان والقاهرة . فلما كانت طرابلس داخلية في حدود افريقية ، وبرقة في أعمال مصر ، ولما عملت كل من الولايتين باستمرار على التحرر من سلطان الحكومة التابعة لها - مما ترتب عليه استعمال القوة ضدها من جانب الحكومة التي يهمها الأمر أو تدخل الأخرى بشكل انتهازي لتحقيق مغانم عابرة على حساب جاريتها - اضطرب أمر البلاد التي أصبحت مجال الصراع السياسي بين جارتها الغربية والشرقية ، وانتهى الأمر بانهاك قوى الجميع . وترتب على ضعف ليبيا أن انكشفت حدود مصر الغربية وحدود تونس الشرقية . وبذلك عملت ثورة برقة في أول الأمر على تسهيل دخول كنامة الى أرض مصر ، كما قررت ثورتها الاخيرة اطلاق قبائل العرب عليها . وكذلك كانت الحالة بالنسبة الى طرابلس فهي عندما خرجت على الزيريين تشجع الفاطميون وتدخلوا في أمورها مما ساعد على قيام بنى خزرون فيها . وكانت نتيجة هذا الصراع الدائم أن تبددت قوى قبائل لواته وهوارة وزناته في ليبيا وانتشرت البلاد على مصراعيها أمام بنى هلال وبنى سليم الذين استقروا فيها وعربوها واندفعوا منها يعربون افريقية والمغرب . ثم ان انشاء بنى خزرون لأسطولهم في طرابلس هو الذي دعا الزيريين الى إعادة مجد المهديّة

- (١) ابن الأثير، ج ٨ ص ٢٥٦ .
- (٢) ابن عذاري، البيان المغرب، ج ١ ص ٤١٧ .
- (٣) ابن عذاري ج ١ ص ٤١٨ .
- (٤) ابن الأثير، ج ٩ ص ٢٣٦ .
- (٥) ابن الأثير، ج ٩ ص ٢٣٦ ، ٢٣٧ .

الساحلية نحو البحر ، ذلك النشاط الذى اتخذ في كثير من الأحيان صفة الجهاد البحرى ، وجاء استيلاء الهالبيين على البلاد الداخلية فوجه نشاط معظم المدن ضد أوروبا حتى العصر الحديث .

النظرية العنصرية

— نقد وتحليل —

الدكتور احمد الخشاب

تمهيد

يفرق علماء الدراسات الانسانية بين المجموعات البشرية على أساس المظهر الفيزيقي الخارجى والصفات الجسدية والمميزات الحيوية لهذه المجموعات . ولم يستطع الباحثون أن يتفقوا بضد تصنيفهم للسلاسل البشرية على أسس ثابتة محددة ، ومن أجل هذا نجد عدة تقسيمات للناس : كل منها بحسب الصفة أو الصفات التى يتخذها العالم أساسا للتقسيم . ويكفى أن نشير في هذا المجال الى أن أهم المميزات التى تستخدم للفرقة بين المجموعات الانسانية المختلفة تدور حول .

(١) لون البشرة ، (٢) لون الشعر ، (٣) شكل الشعر ، (٤) لون العين .

(٥) نسبة عرض الرأس الى طولها ، (٦) نسبة عرض الأنف الى طوله ، (٧) توزيع شعر الجسم (٨) طول القامة . (٩) درجة بروز القسم الأسفل من الوجه أو عدم بروزه .

(١٠) ثم أخيرا في وقتنا الحاضر يتجه علماء الاتروبولوجى الى الاستعانة بتحليل

يتوقف اختلاف لون الجلد على مقدار الحبيبات الملونة التى توجد في أعماق البشرة	بيض البشرة	Leucodermi	(١)
	سود البشرة	Xanthodermi	
	صفر البشرة	Melanodermi	
الشعر المستقيم	الشعر المستقيم	Leiotrichy	(٢)
	الشعر المموج	Cymotrichy	
	الشعر المفلفل	Ulotrichy	
الرأس طويلة اذا نقصت النسبة عن ٧٥ الرأس متوسطة اذا كانت النسبة ٧٥، ٨٠ الرأس عريضة اذا زادت النسبة عن ٨٠	الرأس طويلة اذا نقصت النسبة عن ٧٥	Dolicho Cephalic	(٣)
	الرأس متوسطة اذا كانت النسبة ٧٥، ٨٠	Meso Cephalic	
	الرأس عريضة اذا زادت النسبة عن ٨٠	Brachy Cephalic	
Prognathism and Orthognathism.			(٤)